

اسطنبول ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠م

إسطنبول: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠م

اسم الكتاب باللغة التركية: KAINAT.INSAN.VE KURANDA TEFEKKUR

الترجمة للعربية: د.عبدالله المصري

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٢٩٧٧

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم



العنوان:

Adres: Organize Sanayi Bölgesi Turgut Özal Cad.
No: 117 Kat:2/C Başakşehir / İstanbul
Tel: (0090 212) 671 07 00 Pbx Faks:(0090 212) 671 07 48
www.worldpublishings.com/sa

التفكر

في

الكون والإنسان والقرآن

تأليف

عثمان نوري طوباش

ترجمة

د. عبد الله المصري

مراجعةو تصحيح وتدقيق

الدكتور.آدم أقيـــن

"لا عبادة كالتفكر" (البيهقي، الشعب، جـ٤، ١٥٧)

نحمد الله ﷻ صاحب الكرم والإحسان العميم حمداً دائماً لا يُحَدْ، لأنه أنعم علينا بنعمة التفكر والتدبر، وفتح لنا طريق معرفته ﷻ. والصلاة والسلام دائماً على رسول الله ﷺ خير من قرأ القرآن، وأدرك كنه الكون والإنسان، وعلَّم أمته كيف تقرأ وتدرك هذه الأشياء بعيون القلب قبل عيون الرأس.

إن الله تعالى قد أنعم على البشر فقط من بين جميع المخلوقات–والجن بشكل جزئي–بأن جعل لهم نصيباً من إدراك كنه القرآن والإنسان والكون، وأعطاهم القدرة على أن يستخرجوا منها لآليء الحقيقة التي تنير حياتهم. وقد جعل الوسيلة الوحيدة لتحقيق تلك الغاية هي التفكر والتدبر.

وفي الحقيقة فإن التفكر والتدبر هو شرط لازم لا يمكن الإستغناء عنه للوصول إلى الحقيقة وتحقيق مستوى الحياة القلبية، والقرآن الكريم الذي هو مرشد السعادة والهداية –الذي لا شبيه له ولا نظير– يدعونا هو أيضاً من أول آيه إلى أخر آية فيه إلى التفكر بكل الوسائل، وهو

يأمرنا بوجوب التفكر في الحِكَم في خلق الإنسان، والنظام المعجز في الكون، والتفكر في آيات الله ﷻ وتجليات العظمة والقدرة المطلقة في سائر الكون.

والله تعالى في القرآن الكريم يخاطب المؤمنين بكل الوسائل منبّهاً لهم قائلاً: **أفلا تتفكرون؟ أفلا يعقلون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا يبصرون؟** [1]

وهو ﷻ يلفت انتباه المؤمنين إلى المخلوقات فيقول: ﴿**أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ (الغاشية،١٧) [2]

(١) انظر: البقرة، ٢١٩، ٢٦٦؛ النساء، ٨٢؛ الأنعام، ٥٠؛ الأحزاب، ٢٧؛ يس، ٦٨ ؛ محمد، ٢٤.

(٢) إن الله ﷻ بمقتضى اسمه الباري المصور قد جهز كل مخلوق من مخلوقاته بأشكال وصور متنوعة وجهز كل مخلوق بالقدرات المناسبة والملائمة للظروف التي يتواجد فيها والوظيفة التي سيؤديها. ومن أوضح الأمثلة على هذا الأمر الخصائص التي أعطاها للجمل. فهو قد جعل له مكاناً يحفظ فيه الماء ليكفيه أسابيع؛ لأنه يعيش في جو صحراوي قاحل ليس به زرع ولا ماء. وهذا المكان هو سنام الجمل. ويستطيع الجمل -الذي يتغذى على النباتات حتى التي بها أشواك- أن يحتفظ بها طازجة لمدة طويلة. فضلاً عن ذلك فقد خلقه المولى ملائماً وصالحاً لمواجهة العواصف الرملية في الصحراء والحرارة القاسية في ذلك الجو الصحراوي. وبلا شك فإن هذا واحِدٌ فقط من بين آلاف الأمثلة التي تدل على العلم والقدرة والصنعة الإلهية.

ويلفت نظرهم إلى الطبيعة وما فيها فيقول:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق، ٦)

ويقول جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس، ١٠١) (٣)

ويلفت نظرهم إلى التاريخ فيقول:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد، ١٠)

وهكذا فإن الحق عَزَّ وَجَلَّ يدعونا نحن عبيده إلى التفكر بكل وسيلة، ويريدنا أن نفهم فطرة الله تعالى التي يمكن أن نسميها القوانين الإلهية المتحكمة في الكون، وشروط تجلي هذه القوانين.

وفي نفس السياق فإن ربنا عَزَّ وَجَلَّ يريد من الإنسان أيضاً أن يشاهد الكون ليس بنظرة فارغة غير مدركة وغير واعية؛ بل بعين بصيرة عالمة مدركة.

---

(٣) وانظر أيضا: الغاشية، ١٧-٢٠؛ النور، ٤٣؛ الرعد، ٣؛ النحل، ٦٥؛ الروم، ٥٠؛ الأنبياء، ٣١

لذا فإن الحق ﷻ بعد أن يذكر النعم الإلهية في القرآن الكريم فإنه يخاطبنا قائلاً:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (آل عمران، ١٣)

ويقول ﷻ:

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَار﴾ (الحشر، ٢)

والله العلي القدير يريد منا بشدة أن نفكر سواءً في أنفسنا أو في الطبيعة، ولذا فقد أمرنا الله ﷻ في أكثر من مائة وخمسين موضعاً في القرآن الكريم بأن نفكر في تجليات وآثار العظمة والقدرة الإلهية.

ومن أجل تحقيق هذا الأمر استعمل مفاهيم من قبيل (**التعقل، التدبر، التذكر، التفكر**) ولعل التصوف هو أفضل منهج للتربية المعنوية يطبق هذه المفاهيم في الحياة في أعلى مستوياتها.

والتصوف هو استعداد الفرد المعنوي، وعلاوة على ذلك هو اسم لطريق الإنضاج والكمال الذي يهدف إلى الوصول إلى ذرى الحقائق على قدر منح الله تعالى وعطائه. ومن أجل ذلك فإن الحكمة التي تقول: (**من عرف نفسه فقد عرف ربَّه**) تشكل واحدة من أهم أسس ومباديء أهل التصوف في طريق التكامل والنضج المعنوي .

وليس هناك ذرة في الكون لا تُذَكِّر الإنسانَ ذا القلب الحي بخالقه، وتذكره بقدرة المبدع الخالق. وكل شيء في الكون من عالم الذرة إلى عالم المجرة يشهد على العظمة الإلهية.

والواقع أن المخلوقات كلَّها تعبر بلسان الحال بأفضل شكل وأوضحه عن تلك الحقيقة. ومن أجل أن يستطيع المؤمنون إدراك هذه اللطائف بالشكل اللائق يجب أن يكون الحق ﷻ هو قِبْلَة القلب كما أن الكعبة قِبْلَةُ البدن.

وقد ورد في آي الذكر الحكيم قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران، ١٩١)

فعلى أي إنسان يريد أن يفكر في تجليات القدرة والعظمة الإلهية التي في الكون أن يدرك عجزه أولاً. وبعد ذلك يكون دائماً في حال ذكر لربه وخالقِه مع كل نَفَس يتنفسه بتسليم وطاعةٍ تامة. وهكذا يملأ قلبه بنور التقوى؛ والتفكر أيضاً يبلغ أفضل قوام وحال له مع التقوى.

إن قيمة الإنسان عند الله ﷻ لا تكون بشكله، ولا هيئته، ولا إمكانيته المادية الدنيوية؛ بل تكون قيمة العبد بما لديه من استعداد قلبي، وعمق معنوي، وقابلية روحية.

ومن أجل ذلك فإن القرآن الكريم يقوي ويدْعم تفكر المؤمن بعمق شعوري إيماني، ويخلّص ذلك التفكر من حدود المادة والشهوة الضيقة ويحلق به إلى آفاق الروحانية الرحبة الأبدية الممتدة بلا نهاية. وتفكر المؤمن -الذي يشاهد المعارض واللوحات الإلهية التي في الكون بنظر الإعتبار والتدبر ويكتسب صفة روحانية وتفكر عميق وشامل يصل به إلى الذرى بالتدبر القلبي- هو أجمل مفتاح للإيمان.

اما أي إنسان لا يكمل بنيته الروحية فإنه يبقى متعلقاً بمظاهر الحياة الدنيئة، ويفني استعداد التفكر لديه في دهاليز المحبات المؤقتة الزائلة. وهكذا تهجم القسوة والغلظة على القلب. وبدلاً من توجيه القلب إلى الإدراك والحق والخير تجعله يتوجه دائماً إلى المظاهر الخادعة الفانية الزائلة، وتجعله ضعيفاً أمام أهواء ورغبات النفس. وإذا ما انعدم التفكر فإن الكفن الذي هو أخر لباس في سوق الحياة الفانية سيلفُّه ويحوطه ذات يوم بشكل مؤكد. وسوف تزيل حادثة الموت اللذات الفانية، والزينات والشواغل الخادعة كلها.

وكما أن مثل هذا التفكر المدعوم بعمق الشعور الإيماني يعطي سكينة وسعادة دائمين للإنسان، فإن البقاء داخل حدود العقل الجاف الخالص يزيد الطمع والأنانية والكبر، ويضعف القلب، ويبتليه بالغفلة.

فكما أن بصمة الإصبع هي بمثابة الهوية الشخصية فإن الصفة والميزة التي في التدبر والتفكر هي بمثابة هويته المعنوية. وعلى هذا فإن أي مؤمن يريد أن يكتسب العمق الروحي، ويريد أن يعيش في مستوى يليق بشرف الإنسانية، وأن يعيش بشكل يلائم غاية خلقه، لابد أن يلزم نفسه بالدخول في جو التفكر الذي أوضحه القرآن الكريم؛ لأن الخشوع في العبادات، والرقة في القلب، والود والصفاء في العلاقات مع الناس يمكن أن تتحقق فقط بتفكرٍ كهذا. ورغم الأهمية التي أعطاها ديننا للتفكر والتدبر فإن الإنسان بسبب غفلته التي تنشأ عن الإنشغال بالمشاكل والهموم الدنيوية يعيش بعيداً عن التفكر والتدبر الحقيقي. وكنتيجة لهذا الأمر فإن الإنسان ينسى الموت، وينسى حقيقة أن هذه الدنيا دار إمتحان.

أما المؤمنون الذين يعيشون بالتقوى ولديهم القدرة على التفكر والتدبر -بالشكل الذي وصفناه- فأنهم يعبرون فوق شهواتهم رغم قلتها دائماً، ويصلون إلى تكامل ونضج يمكنهم من إدراك حقائقهم الإنسانية نفسها بضعفها وميزاتها.

ومثل هؤلاء رغم الحياة الظاهرية التي يعشيون فيها فإنهم في نفس الوقت يرتبطون بروحية أبدية تكسبهم جواً داخلياً؛ ونتيجة لإتساع قلوبهم فإنهم يصلون إلى

مدارك عالية تتجاوز آفاق العالم المادي المنظور. وتلك نعمة إلهية يمكن أن ينالها من حقق الإيمان الكامل بهذه الصورة؛ وهكذا فإن المؤمن الحقيقي الذي يستطيع أن يتصف بهذا الوصف لا يمكنه بعد ذلك أن ينظر إلى الحياة على أنها نعمة يركن إليها. وآمال الدنيا في عين مؤمن تحلى بهذه الصفات هي حبال بالية تتهاوى.

ومع هذا توجد أهمية كبيرة لإستثمار رأس مال العمر، لأن ذلك هو رأس المال الوحيد لاكتساب الحياة الأبدية. وأي مؤمن وصل إلى إدراك هذا يعرف أنه سيندم بشدة في عاقبته إذا لم يعمل بمقتضى الآية الكريمة التي تقول:

﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾(هود، ١١٢)

ولكي لا يحزن ويصيبه هذا الندم فعليه ألا يغفل -ولا طرفة عين- عن قول الحق ﷻ:

﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (المنافقون، ١٠-١١)

والحاصل أن الحق ﷻ يريد من كل مؤمن إدراك كنه العظمة الإلهية، والحكمة في ذلك النظام الكبير وماهيتها

الحقيقية؛ ونتيجة هذا فإن الله ﷻ يريد من عبده ألا يعتمد على النعم الفانية التي يملكها حتى يكون عبداً جميلاً يليق بالحياة التي قوامها التقوى، وبالجنة في الآخرة.

وهكذا فإننا سنحاول في كتابنا هذا -الذي لحْمَته العجز وسداه النقصان- الوقوف على أهمية التفكر وفوائده وكيفية تحقيقه؛ وذلك لأن التفكر كان واحداً من أهم سنن المصطفى ﷺ.

ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر إلى الدكتور مراد قَيا ومحمد عاكف كوناي اللذين ساعدا في إعداد هذا الكتاب. وأتضرع إلى الله ﷻ أن يجعل هذا الجهد صدقة جارية في ميزان حسناتهما.

يا ربنا أصلح بالرضا مشاعرنا وأفكارنا كلها، وأنعم علينا أجمعين بالتوفيق لكي نستطيع أن نكمل عمرنا الفاني بهذا الوصف، وأن نصل إلى ذرى معرفتك ومحبتك .. آمين

عثمان نوري طوباش
١٤٣٢/ ٢٠١٠
أسكدار–اسطنبول

حدود العقل

لقد أعطى الإسلام أهمية كبيرة للعقل، ولهذا فقد كان العقل واحداً من شرطين أساسين لتكليفه[1]. وقد علَّم الإسلام الإنسانَ بكل وسيلة ممكنة كيف يستعمل عقله بالوسيلة التي تليق. ومع هذا فإن الحق ﷻ قد أوضح أن قدرة الإنسان ليست مطلقة في إدراك حقائق الكون؛ لأنه ﷻ لم ينعم بالقدرة المطلقة اللامحدودة على أي من مخلوقاته التي خلقها.

فكما أن قدرة النظر محدودة بقدرة العين، وقدرة السمع محدودة بقدرة الأذن؛ فإن قدرة الإدراك محدودة بقدرة العقل؛ فإذا كان هناك وجود لا نهائي لا يمكن للعين أن تراه بسبب أنه أكبر من قدرتها على النظر، وإذا كان هناك عدد لا حصر له من الأصوات لا يمكن سماعها بسبب أنه

(١) هناك شرطان في الإسلام لابد أن يتحققا في الفرد المسلم حتى يتم تكليفه: الشرط الأول هو البلوغ، أي وصول الطفل إلى سن البلوغ. والشرط الثاني هو العقل، أي أن يكون لديه ملكات عقلية يستطيع بها تمييز الخطأ من الصواب. وعلى هذا النحو فإن الأطفال والمجانين ليسوا مسئولين عن أعمالهم وغير مكلفين في نظر الإسلام.

فوق مستوى سماع الآذان، فإنه بالتأكيد توجد حقائق كثيرة لا يمكن الإحاطة بها أو إدراكها لأنها فوق طاقة الإنسان على الإدراك والفهم. أي أن العقل بمفرده لا يكفي لأدراك الحقيقة بكاملها .

فمثلا فلاسفة العقل الذين اعتقدوا أن قدرة العقل غير محدودة في الوصول إلى الحقيقة وإدراكها قد جروا البشر الذين تأثروا بهم إلى حضيض التعاسة بدلا من السعادة التي كانوا يطلبونها [٢]

(٢) لقد وقعت حادثة فريدة في اليونان القديم تظهر بجلاء ضعف العقل وقدرته المحدودة: ذلك أن شابًا ذهب إلى إحدى الفلاسفة ليدرس على يديه القانون. وقرر أنه سيدفع له نصف الأجر المحدد مقدمًا، أما النصف الأخر فسوف يدفعه عند أول دعوى يكسبها. ومعنى هذا أنه إذا تلقى تعليماً جيدًا للغاية يتمكن به من اكتساب دعوته الأولى وسيكون لأستاذه الحق في الحصول على القسط الثاني من الأجر. ولكن بعد أن أتم الطالب تعليمه قال لأستاذه: إنه لن يعطيه باقي الأجر ويكفيه القسط الأول الذي أعطاه له!.

وبسبب ما حدث من الطالب تجاه أستاذه فقد تحققت أول دعوى قضائية له. وعندما مثل الطالب أمام هيئة الحكماء التي تشكلت قال: يجب علي ألا أعطي باقي النقود سواء كسبت هذه الدعوى أو خسرتها! فسأله أحد الحكماء ولماذا؟ فرد عليه قائلاً: لأنني لو كسبت الدعوى بمقتضى قراركم فيجب عليَّ أن لا أعطي له النقود، ولو خسرتها فيجب

ومما لا شك فيه فإن الله ﷻ يعرف خصائص عباده الذين خلقهم أكثر من أنفسهم، وقد أرسل ﷻ حوالي مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول بحسب الروايات طوال تاريخ الإنسانية وذلك لتجنب ضعف العقل، وقصوره في الوصول إلى الحقيقة. وكانت الصحف والكتب التي أوحى الله ﷻ بها إلى هؤلاء الرسل والأنبياء خير معين في توصيل الإنسانية إلى الحقيقة وإيصال الحقيقة إليها.

عيَّى ألّا أعطيه هذه النقود بمقتضى الاتفاق الذي تم بيني وبينه.

وعندما تحدث الفيلسوف قال: «يجب عليّ أنا أيضًا ألا أخذ هذه النقود سواء كسبت الدعوى أو خسرتها!. وعندما سألته هيئة المحكمة لماذا؟ أجاب عليهم قائلاً: «لأنني لو كسبت القضية بمقتضى قراركم فيجب على ألا أخذ النقود بمقتضى الاتفاق الذي تم بيني وبين المدعي عليه لأن أداء القسط الثاني من النقود كان مشروطًا بنجاحه في كسب أول قضية له وهذا الشرط لن يتحقق لو كسبت تلك القضية».

ومثلما رأينا فان إدعاء كل من الطالب والفيلسوف كان منطقيًا وعقلانيًا إلى أقصى درجة. ولكن يمكن القول أن العقل والمنطق مثلما رأينا في هذا المثال قد حبس نفسه داخل جدران قد نسجها بنفسه ودخل في طرق مسدودة لا يستطيع الخروج منها. فكيف لعقل يعجز على حل كثير من الخلافات البشرية أن يتمكن من إدراك الحقائق الإلهية التي لا حصر ولا نهاية لها ويفهمها. ولهذا السبب فإن سلامة العقل من المهالك ترتبط بتربية هذا العقل بالوحي والتسليم القلبي الواجبين .

وعلى ذلك فان تربية العقل بالوحي تعد شرطاً لازماً؛ لأن العقل الذي لم يتربَّ في ضوء إرشاد البيانات الإلهية يكون تقريباً مثل حصان جامح لا يمكن به الوصول إلى الهدف، كما أنه من المحتمل بشدة أن يتعثر في الحُفَر والمهاوي ويتعرض للهلاك.

ولهذا السبب فإنه إذا كان يجب تربية هذا الحصان البرِّي غير المروض بوضع اللجام عليه للإستفادة منه على أكمل وجه، فإنه من الضروري تهذيب العقل بالتربية المعنوية التي قوامها الوحي والسنة المطهرة حتى يصل إلى مرتبة العقل السليم. ومالم يتم عمل ذلك الأمر فان هذا العقل يكون ببساطة مثل سلاح ذو حدين؛ إما أن يكون وسيلة للخير، أو يكون وسيلة للشر.

وظيفة القلب

الإيمان في نظر الإسلام هو تصديق بالجَنان وإقرار باللِسان. أي أن العقل ليس له مكان في التجلي الحقيقي للإيمان؛ لأن القلب هو مركز الشعور والإحساس. وهذا الأمر مهم للغاية؛ لأن الإيمان هو إحساس علوي. أما العقل فهو عبارة عن وسيلة لازمة وضرورية من أجل الوصول إلى شعور الإيمان وتجاوز المراحل المعلومة الواضحة التي تحقق هذا الأمر.

والحقائق الإلهية المقبولة عقلا والمصدقة ذهنياً إذا لم يتبعها تصديق قلبي فلن تنتج إيماناً حقيقياً. ومالم يستقر الإيمان في القلب فلن يتحول إلى عمل، ولا يمكن أن تستقيم السلوكيات والتصرفات. وإذا حدث هذا فلن يكون للعمل أية قيمة عند الحق ﷻ. وقد شبّه الحق ﷻ من يعرفون الحقائق الإلهية ولكن لا يدركون كنهها؛ لغفلة في قلوبهم بالحمار الذي يحمل الكتب فقال ﷻ:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة، ٥)

ولهذا السبب فان معرفة الحقائق الإلهية ليست تكديس تلك الحقائق وتراكمها في الذهن فقط؛ بل إن المعرفة الحقة هي حل أسرار النظام الكبير الموجودة في الحياة والكون عن طريق التفكر والتدبر، والعمل بمقتضى تلك المعرفة، ومن يعمل هذا فَإنه يكونُ قلبُه مملوءً بنور الإيمانِ.

والنتيجة التي يتحصل عليها العقل عندما يفكر في الإنسان والكون والقرآن -الذي هو بمثابة مرآة للحقائق التي فيهما- تكون مثل المعادن الخام التي تستخرج من باطن الأرض، أما من يحول هذه المعادن إلى مشغولات ومصنوعات فهو القلب.

فالقلب هو مركز التفكر والشعور والإحساس، وشعور القلب الذي يعبّر عنها بألفاظ «**الحدْس والإلهام والواردات والسوانح**» عندما يتحد مع الأدلة التي يقدمها العقل فإنه يوفر إدراكًا بالمعنى الكامل للحقيقة. تماماً مثل إحضار قطع إحدى الأواني الخزفية المحطمة وتجديدها واستعادة شكلها الأصلي.

ويمكن القول بأن إتمام الوصول إلى الحق والخير في أكمل شكل وأجمله يكون بتربية العقل بالوحي، وتعويض نقصان العقل بالتسليم في النقطة التي يعجز فيها العقل، والدوران في فلك قلب نضج في نور الإيمان.

وقيمة التفكر أيضاً ترتبط بتقويته بالتدبر، أي إمكانية العمل وفق العوامل القلبية والعقلية داخل توازن دقيق متوافق. فلو أعطى الإنسان ثِقلاً للعقل والذهن فقط فربما يصبح رجلاً دنيوياً جيداً أي إنسان نفعي. ولكن لكي يكون مؤمناً كاملاً. فيجب تربية القلب الذي هو مركز الأحاسيس والمشاعر بالتربية المعنوية، وأن يكون ذلك القلب مرشداً للعقل، لأن القلب الذي هو مركز الإحساس يوجه العقل نحو التفكر، أما التفكر فيوجه العقل نحو الارداة.

ويمكن القول أن السبب الأساسي للأفعال الإرادية هو القلب ففيه تستقر الأحاسيس وتضرب بجذورها. ومن

هذه الناحية فإن توطين القلب وإقراره في إطار الأوامر الإلهية يكون ذا أهمية أكبر من الأعضاء الأخرى. لأن التفكر العقلي في جو من الرغبات الشهوانية، والحرمان من إرشاد قلب سليم تحت تسلط الأمراض القلبية -مثل العُجْب الغرور والكبر- يخرج عن مجراه الأصلي الأساسي، ويسوق الإنسان إلى الضلال والإنحراف مثل الشيطان.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لولا أن الشيطان له عشق بمقدار ما له عقل لما انحط به الحال إلى ما هو عليه».

أي أن العقل لا يفيد ولا يعطي قيمة بمفرده، وأنه يجب التحكم في دفة العقل، وإنضاج الأحاسيس التي في القلب وإكمالها معنوياً من أجل تحقيق أفضل استقامة للعقل.

والحاصل أن أي تفكر حقيقي يبدأ في النقطة التي يتواجد فيها عقل أضاء بنور الوحي وقلبٍ نضج معنوياً. ونحن في هذا الكتاب عندما نستعملً مفهوم التفكر فإننا نقصد به شكله المقبول المتمثل في تربيته وإعداده بالحقائق الإلهية، وتقويته بالتدبر القلبي.

والتفكر من ناحية معنى الكلمة هو التعمق والتمعن في شيء ما لأخذ العبرة منه. والتأمل هو دوام التفكر،

وإمعان النظر، والتدقيق الجيد في الحوادث والكون لأخذ العبرة والنصيحة والوصول إلى الحقيقة.

أما التدبر فهو التفكير في عواقب عمل ما ونتائجه. ونحن اليوم في بلادنا تركيا نعبر عن هذه المعاني كلها بكلمة واحدة هي «**تفكر**» أو « دوشونمك Düşünmek". ومما لا شك فيه أن هذه الحال هي نتيجة مريرة لخيانة التخريب الرهيبة التي حدثت في لغتنا، وذلك من أجل تجريد أمتنا العزيزة من ثقافتها الإسلامية الأصيلة. لأن الإنسان يفكر بالكلمات ولا يمكن أن تنفتح المفاهيم والكلمات التي هي وسائل ووسائط للتعبير عن تلك المفاهيم على آفاق التفكر الإسلامي العميقة والرحبة بلسان عاجز مضطرب ناقص.

ومن هذه الناحية فإنه يجب علينا أن نصاحب الكلمات التي تأتي من ثقافة القرآن، وأن نُحْيي هذه الكلمات باستعمالها وعدم إعطاء أي اعتبار أو قيمة لأية لغة ملفقة مزيفة تريد أن تحل محل هذه الثقافة الاسلامية التي منبعها القرآن.

أهمية التفكر

توجد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي أحاديث رسوله الكريم ﷺ أوامر كثيرة وحث كبير يتعلق بالبحث والتدقيق والتفكر والإعتبار؛ وفي هذا الشأن نذكر هاتين الآيتين من جملة

مئات الآيات الكريمة التي احتلت مكانها في القرآن الكريم، يقول الحق ﷻ: ﴿**أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ (الروم، ٨)

وقوله تعالى ﷻ: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ (سبأ، ٤٦)

ونجد أن تلك الآيات الكريمة توصي الناس أن يُمعنوا التفكر في عبوديتهم لله تعالى أفراداً وجماعات، والوقوف جيدًا على حقيقة تلك العبودية [٣]، ووعدتهم تلك الآيات أن يحققوا النجاة والفلاح فقط إن هم تمسكوا بهذه النصحية الوحيدة.

---

(٣) إن فكر المجتمع والأغلبية يؤثر بشكل عام في فكر الفرد، والطريقة التي يتخلص بها الفرد من هذا التأثير وإيجاد الحقيقة تكون بالعودة والرجوع إلى أهل الإرشاد، واستفتاء القلب، والدخول في مناخ التفكر والتدبر. وتبعًا لهذه الآية الكريمة فان الأحكام التي يطرحها العقل الجماعي للناس ليست صحيحة أو قريبة من الصواب في كل الأحيان. وعلى هذا فإن كل فرد يجب عليه أن يكون له فكره المستقل، وأن ينقد بصراحة هذه الأفكار ويصل إلى الفكر الصحيح المستقل.

التفكر الدائم كان حال رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ يحب الصمت والتفكر كثيراً. وكانﷺ في الأوقات التي سبقت بعثته الشريفة يرغب كثيراً في الخلوة والإنزواء والعزلة. فكان يذهب إلى غار حراء الذي يَبعد عن مكة المكرمة خمسة كيلو مترات تقريباً ويبقى هناك أياماً معدودة. وكانت عبادته ﷺ في تلك الخلوة والعزلة هي التفكر والمشاهدة والإعتبار والتدبر في ملكوت السموات والأرض مثل جده ابراهيم عليه السلام(٤). وعلى هذا النحو كان الله عز وجل يُحَضِر رسوله ﷺ لمهمة الرسالة المقدسة.

وفي تلك الأيام كان رسول الله ﷺ يفكر دائماً في الكون وأحواله، وفي الحياة بعد الموت. وعن تلك الفترة يتحدث هند بن أبي هالة رضي الله عنه فيقول:(كان رسول الله ﷺ ... وإذا ألتفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، يعني جل نظره الملاحظة، يسبق أصحابه، يبدر من لقي بالسلام... متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل الصمت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول، ولا تقصير، دمث ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم ذواقاً

(٤) العيني: عمدة القارئ ،بيروت، بدون تاريخ جـ٦١، جـ١٤ ، ص١٢٨

ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا نوزع الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فيضرب بباطن راحة اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا ضحك غض طرفه، جُلَّ ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام) (ابن سعد، الطبقات، جـ١، ٤٢٢-٤٢٣)

وكان رسول الله ﷺ في معرض حث أمته على التفكر يقول: "أَمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ: خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وأن أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي، وأَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، **وأن يكون صَمْتي فِكْرا، ونُطْقِي ذِكْرا، ونظري عبرة**، وآمرُ بالعُرْف، وقيل: بالمعروف" أخرجه رزين (الجزري، جامع الأصول، ١١، ٧٨٦، رقم، ٧١٣٩)

وقال عليه الصلاة والسلام:

"**لا عبادة كالتفكر**" (البيهيقي، الشعب، جـ٤، ١٥٧)

"**كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وَعودوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكير والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء، تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لاتدركون**" (أبو نعيم، الحلية، جـ١، ٣٥٨؛ السيوطي، جامع الأحاديث، رقم: ١٥٨٤٣)

كذلك قال أبو ذر الغفاري ﵁: «جلست إلى رَسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ﵇ فقال ﷺ:

"كانت أمثالاً كلها أيها الملك المسلط المبتلى المغرور فإني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه عز وجل وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا لثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه" (أبو نعيم، الحلية، جـ١، ١٦٧)

وكان لقمان ﵇ يحب أن يخلو بنفسه ويطيل الجلوس وحده فلما سُئل عن ذلك قال: «إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة»[٥]

وكان أبو الدرداء ﵁ يقول:

(تفكر ساعة خير من قيام ليلة) (البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٥٣١، رقم: ٨١١)

(٥) الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت، ١٩٩٥، دار الخير، جـ٦ ،٤٥.

ولما سُئل سعيد بنُ المسيِّب أيُّ العبادة أفضلُ؟ قال: «التفكر في خلقه، والتفقه في دينه» (البرسوي، روح البيان، تفسيرسورة النور، آية٤٤)

ومثلما ذكرنا فيما سبق فإن التفكر الذي يحمل الشخص على إدراك عظمة الله تعالى هو نشاط عقلي. والذي يوصل هذا الجهد والنشاط إلى نتيجة كاملة هو القلب. وكما أن قلبنا هو أشرف أعضاء الجسم فإنه من الطبيعي أن يكون عمله أفضل من أعمال الأعضاء الأُخرى؛ لأن القلب هو محل نظر المولى ﷻ.

إن هناك ثمة حقيقة واضحة جدّاً مفادها أن تفكر العقل الذي تربى بالوحي هو رأس المال الأول للأنوار التي تنير القلب، وهو الوسيلة والطريقة الوحيدة التي توصل إلى البصيرة والعرفان، مرة أخرى فإن تفكُّراً كهذا هو وسيلة للعلم، والزهد، وترك المعاصي، والمحبة الإلهية.

وأفضل أنواع التفكر هو التفكر في قدرة الله وعظمته وحكمته وتقديره. وفي ظل هذا التفكر فإن الإنسان يفكر في إصلاح الحياة الدنيا، وترك كل ما يسبب الضرر لآخرته.

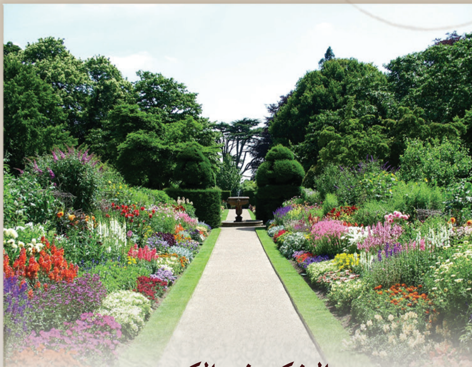
فعندما يفكر شخص في نعم الله تعالى وعطاءاته وأوامره ونواهيه وأسمائه وصفاته؛ فإنه يُنبت بذور المحبة والمعرفة في قلبه، ويبدأ في اكتساب مستوى معنوي.

وعندما يفكر في الآخرة وفي أن الدنيا دار امتحان وفناء، وأن الاخرة هي دار شرف وبقاء؛ فإن رغبته تزيد في الآخرة، ويبدأ في إعطاء قيمة وأهمية تفوق ما للدنيا. ويدرك أن الحياة الدنيا هي هرولة مسرعة بين رحم الأم والقبر. ويزيد من حماسته وغيرته وسعيه الدءوب في أن يجعل عمره أكثر بركة، مدركاً أن هذا العمر هو أفضل رأس مال لاكتساب السعادة في الآخرة. ويعرف أن أوقاته غنيمة فيستغلها على أفضل شكل وأجمله في أعمال الخير والصواب.

وما أجمل قول السيد أبو الحسن الخرقاني عندما قال: «كل عضو في المؤمن يجب أن تكون مشغولة دوماً بالله ﷻ. ويجب على كل مؤمن أن يذكر الله بقلبه، وأن يذكره باللسان وأن يرى الشيء الذي يريد الحق منه أن يراه بعينه، وأن يعطي ويمنح بيده، وأن يسعى لزيارة البشر على قَدَمَيْه، وأن يكون في خدمة المؤمنين بعقله، وأن يدعو بإيمان ويقين قاطع، وأن يسعى ويجتهد للوصول إلى المعرفة مفكراً بعقله، وأن يعمل عمله بإخلاص، وأن ينبه الناس ويذكرهم بأهوال يوم القيامة وشدته. وأنا أضمن لكل فرد يفعل هذا أن يذهب إلى الجنة ما أن يخرج من قبره ويجر خلفه أثمال الكفن»[٦]

(٦) ابوالحسن الخرقاني، رسالة السير والسلوك، اسطنبول، ٢٠٠٦، ص ١٠٧.





التفكر في الكون

ما أعجب الانسان يصاب بالحيرة والدهشة إذا ما رأى قصرًا مزخرفًا مزينًا للغاية، فلا يستطيع أن ينسى ذلك القصر، ويظل يتحدث عن جماله طوال حياته . ولكنه لا يرى ولا يقف عند ذلك الكون العظيم الذي هو معجزة إلهية خارقة للعادة، ولا يفكر بالشكل اللائق في بديع صنعها، ولا يتحدث بما يكفي عنها. ومن لا يقف على مثل تلك الأشياء ولا يمعن النظر فيها يكون مثل الأحجار الصلبة التي لا يكون لها أي نصيب من أمطار الربيع المباركة.

مع أن ذلك القصر الفاني الذي أصاب الإنسان بالدهشة والحيرة هو ذرة ضئيلة من ذرات الدنيا التي هي واحدة من أصغر جسيمات ذلك الكون المعظم الفسيح المعجز

التفكر في الكون

إن كل شيء في العالم من الذرة إلى المجرة هو معجزة إلهية خارقة والكون في كل النواحي -بتجليات الحكمة التي لا حصر لها- هو معرض فني لنقوش ولوحات القدرة الإلهية تُعْرض أمام إدراك الإنسان.

والكون بخلقه ونظامه وتوازنه هو وسيلة اعتبار وتدبر مهمة لأهل التفكر من الناس. وتوجد آيات كثيرة تعبر عن هذا المعنى منها قول الحق عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق، ٦ - ٨)

وقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (الزمر، ٢١)

فالماء الذي يبقى فوق الأرض يكون في خدمة الناس؛ فيستخدمونه في تصريف حاجاتهم المختلفة كالمأكل والمشرب والتنظيف. ولهذا السبب فإن هذا الماء يتلوث أحيانًا ولكن الحق ﷻ قد أكرم عباده بنظام معجز مدهش لتنظيف الماء مرة أخرى.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي عندما يتحدث عن وجوب التفكير في تحول الماء فقال:

«عندما يتعكر الماء ويتلوث، ويصبح بالنسبة لنا مصدراً للقلق على الأرض بسبب تلوثه، ويُصاب الناس بالحيرة والدهشة فيبدأون بالإستغاثة والإبتهال والدعاء للحق ﷻ، فيستجيب الله تعالى لتلك الإستغاثات والإبتهالات ويبخّر الماء ويأخذه إلى السماء. ويمر هناك بطرق متنوعة حتى يتطهر تماماً، وبعد ذلك يُنزله إلى الأرض مطراً أو ثلجاً. وفي نهاية الأمر يوصل ذلك الماء إلى بحر واسع».

وقد أشار مولانا جلال الدين الرومي إلى تلك الحادثة الطبيعية التي تشاهد في كل وقت لكي يعتبر منها الإنسان فقال: «أيها الإنسان اُدنُ من الحق ﷻ، وطهر قلبك من كل الأدران مثلما يتطهر الماء في السماء، وكن أيضاً مثل المطر الذي ينشر البركة والرحمة».

ومن ناحية أخرى فإن الإعتبار من خلق الكون، ومشاهدة التوازن به يكفي لإدراك النظام الذي لا تشوبه شائبة أو نقصان، والأسرار والحِكم التي لا تُعد ولا تُحصى داخله. وإدراك أن كل شيء هو كتاب لقدرة منفردة متفردة لا حدود لها ولا نهاية.

التفكر في السموات

إن المملكة الإلهية التي تتجلى في السموات وفي الأرض وفي النجوم هي واحدة من الأدلة على قدرة الحق ﷻ وعظمته. وعدم التفكر في تلك العجائب الخارقة للعادة التي في السموات يكون سبباً لبقاء إدراك الإنسان محروماً من مشاهدة تلك الحكمة العظيمة.

فالأرض مقارنة بالسموات تشبه قطرة في بحر، بل هي أصغر من ذلك. وليست هناك آية إلا وهي تتحدث عن عظمة السموات في آيات القرآن المختلفة. وتوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تقسم بالسموات يقول الحقﷻ:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج، ١)

وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة، ٧٥ - ٧٦) [1]

(١) انظر أيضا: الذاريات، ٧؛ النجم، ١؛ التكوير، ١٥؛ الطارق، ١؛ الشمس،١ ، ٢ ،٥

كما أن اتساع الكون وحركة الأجرام فيه والمسافات التي بينها يُعبر عنها بأرقام كبيرة تفوق قدرة الإنسان وطاقته وحتى خياله. حتى أن رجال العلم لم يجدوا مفراً إلا أن يقولوا: «إن الكون يدهشنا أكثر من قدرتنا عن التخيل، ويحيرنا بشكل كبير للغاية. لأن الأجسام في الفضاء تتباعد عن بعضها البعض بسرعة رهيبة»(٢).

ويقدر علماء الفضاء نصف قطر الكون بـ ١٤ تريليون سنة ضوئية، ومن المعلوم أن سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠ ألف كم في الثانية الواحدة تقريباً.

المَجَرَّات

توجد في السماء مئات المليارات من المجرات التي يمكن رؤيتها بالتليسكوبات الحديثة. والمَجَرَّة هي عبارة عن تجمع نجمي عملاق يحتوي على عدد من النجوم ما بين عشرة ملايين نجم إلى مليار نجم أو ما تبقى من المواد الخام من تلك النجوم. ومجرة «درب التبانة» التي بها نظامنا الشمسي هي واحدة فقط من تلك المجرات.

يُطلق على التجمعات التي تجمع مئات أو الآف المجرات اسم « الحشود المَجَرَّية « أو «العناقيد المجرية». وتسمي التجمعات التي تتكون من الحشود المجرية

(٢) يوسف الحاج، موسوعة الإعجاز العلمي، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٤١٣

اسم «الحشود المجرية العظيمة» أو «العناقيد المجرية العظيمة». ومجرة درب التبانة التي يوجد بداخلها نظامنا الشمسي والثلاثين مجرة تقريباً القريبة منها تشكل «عنقودًا مجريًا صغيرًا».

أما مجرة «المرأة العذراء» التي تعد واحدة من عنقود مجرى قريب إلى مجرتنا، والتي تقع على بعد ٦٥ مليون سنة ضوئية تقريباً، فهي تحتوي تقريبا على ٢٠٠٠ مجرة.

أما العنقود المجري العظيم فيوجد به عشرات من العناقيد المجرية، ويبلغ قطر هذا العنقود ١٠٠ مليون سنة ضوئية. أما الأمر الآخر الذي يظهر العظمة الإلهية التي تنعكس في الكون فهو «تصادم المجرات». وتصادم المجرات هي حوادث تصادفنا كثيراً؛ وذلك عندما يتقاطع مسار أو مدار مجرتين، أو تقترب إحداهما من الأخرى بشكل كبير، فتقوم الجاذبية الضخمة لكل منهما بجذب إحداهما إلى الأخرى. وعلى الرغم من أن المجرات تحتوي على مليارات النجوم؛ إلا أنه بسبب الأبعاد والمسافات الهائلة بين النجوم، فإن النجوم في أثناء هذا التقاطع تمر وتعبر دون أن تتماس، أو يصطدم واحد منها بالآخر، ولكن المادة التي تبني النجوم والتي تتكون من الغاز والغبار تتراكم في أماكن معينة بتأثر هذا التصادم. وهذا الموقف يعجل بتكوين النجوم.

ولهذا السبب يتم رصد أثر الإنفجار في تكوين النجم في المجرات التي تصطدم ببعضها البعض. ويُعتقد أن انفجاراً كهذا سوف يحدث بعد ثلاثة مليارات سنة بين مجرة درب التبانة ومجرة «اندورميدا». لأن مجرة درب التبانة ومجرة اندروميدا يقتربان من بعضهما البعض بسرعة تبلغ ٥٠٠ ألف كم في الساعة تقريباً وتبلغ المسافة بين المجرتين ٢،٢ مليون سنة ضوئية. وعلى هذا فسوف يصطدمان بعد ثلاثة مليارات سنة تقريباً.

ويوجد ٢٠٠ مليار نجم تقريباً في مجرة درب التبانة، والشمس تعد واحدة فقط من هذه النجوم. وقطر مجرة درب التبانة يبلغ ١٠٠ ألف سنة ضوئية. وتدور حول نفسها بسرعة ٢٧٤ كم في الثانية. وتتحرك مباشرة نحو نجم «فيجا» بسرعة ٩٠٠ ألف كم. أما «عنقود هرقل المجري» فيتكون من ١٠ الآف مجرة صغيرة، ويبعد عن كرتنا الأرضية بمقدار ٢٥ ألف سنة ضوئية.

النظام الشمسي

إن النظام الشمسي الموجود في مجرة درب التبانة يبلغ قطره ١٢ مليار كم. ويقدر عمر الشمس بـ ٤،٥ إلى ٥ مليارات سنة. وتبعد الشمس عن مركز المجرة ٣٠ ألف سنة ضوئية.

وفي الشمس يتم في كل ثانية تحويل ٥٦٤ مليون طن من غاز الهيدروجين إلى ٥٦٠ مليون طن من غاز الهيليوم. ومادة الغاز التي تبلغ أربعة ملايين طن والتي تشكل الفرق بينهما تنتشر على شكل ضوء وطاقة.

ولو أردنا أن نحسب كتلة الشمس عن طريق ما تفقده من ملايين الأطنان فإنه يمكن القول: إن الشمس تفقد أربعة ملايين طن من المادة كل ثانية، ولو أن الشمس تنتج طاقة بنفس السرعة والمعدل منذ ٣ مليارات سنة فإن مجموع ما فقدته من كتلتها خلال هذه المدة سيبلغ ٤٠٠ مليار ضرب مليون طن(أي رقم أربعة وأمامه سبعة عشر صفراً)، وهذه القيمة تعني أن كتلة الشمس الحالية تعادل فقط واحد على ٥٠٠٠ من كتلتها الحقيقية.

وتبلغ درجة الحرارة على سطح الشمس ٦٠٠٠ درجة مئوية. أما درجة الحرارة في مركزها فتبلغ ٢٠ مليون درجة مئوية. وحرارة الشمس تزيد باستمرار ومساحتها تتضخم. وبسبب تمدد الشمس المستمر فإنها بعد مدة من الزمن ستنفجر، ويمكن أن تمحو الكواكب القريبة منها كعطارد والزهرة والأرض والمريخ.

وتبلغ كتلة الشمس ٢ ×١٠ ^٢٧ طن، أما نصف قطر الشمس فيبلغ ٧٠٠ ألف كم. وحجم الشمس ٣٢٤،٥٢٩ مرة ضعف حجم الأرض(٣). يقول الحق ﷻ:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾ (الفرقان، ٦١)

السموات تتمدد بشكل مستمر

إن الله تعالى قد أشار إلى أن السماء التي هي بناء قوى متين يتمدد بشكل مستمر فقال ﷻ:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات، ٤٧)

وقد اكتشف العلماء في عام ١٩٢٩م تباعد السدم(٤) عن مجرتنا. وبعد ذلك الإكتشاف طرحوا نظرية تمدد الكون بشكل مستمر٥. وبحسب هذه النظرية التي أصبحت

(٣) أنظر: يوسف الحاج، موسوعة الإعجاز العلمي، ص ٤١٣-٤١٧؛ أكرم أحمد أدريس، الفلك والطب أمام عظمة القرآن، ١٩٠-١١٢ .

(٤) السدم: هي أجرام سماوية ذات مظهر منتشر مكون من غاز متخلخل من الهيدروجين وغبار كوني. ويتجلى دور السدم في تشكل النجوم عندما تنهار تلك السدم جاذبيًا مكونة مجموعة نجمية. وربما تكونت المجموعة الشمسية انطلاقًا من سديم يسمى سديمًا شمسيًا.

(٥) انظر: زغلول النجار، السماء، ص ٨٢-٩٣.

واحدة من أهم الإكتشافات العلمية في القرن العشرين، فإن المجرات تتباعد عن بعضهما البعض بسرعة تزيد بشكل يتناسب طردياً مع المسافات بينها.

وفي عام ١٩٥٠م طبق العلماء هذا القانون، واستطاعوا أن يحسبوا سرعة تباعد المجرات فوجدوا أن المجرة التي تبعد عنا بمقدار ١٠ ملايين سنة ضوئية تتباعد عنا بسرعة ٢٥٠ كم في الثانية، والمجرة التي تبعد عنا بمقدار عشرة مليارات سنة ضوئية تتباعد عنا بسرعة ٢٥٠ ألف كم في الثانية.

إن الكون الذي تحدثنا عن اتساعه والذي يتمدد ويكبر بشكل مستمر يظهر لنا استحالة أن ندرك عظمة الله تعالى وأن نحيط بها بشكل كامل. وما أجمل قول الشاعر (علي حيدر بك) الذي عبر عن حيرته ودهشته أمام لوحات العظمة الإلهية التي لا تعد فقال:

أنت عظيم يا إلهي أنت كبير

وكل عظيم بجانب عظمتك يصير حقير

وهذا الكون العظيم سينتهي كما بدأ. يقول الحق عز وجل:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء، ١٠٤)

ويوم القيامة يتغير حال ذلك الكون حيث يقول الحق ﷻ:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ (إبراهيم، ٤٨). ويشير قوله تعالى إلى أنه سيُخلق عالم جديد وتبدأ حياة جديدة.

السموات السبع

إن الحق ﷻ تحدث عن السموات السبع في آيات القرآن الكريم، وما ذكرناه فيما سبق هو ما يتعلق بالسماء الأولى أو السماء الدنيا. أما السموات الأخرى فكيف يمكن للإنسان أن يعقلها أو يدركها؟! يقول الحق ﷻ:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ، وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك، ٣-٥)

والآن ارفع رأسك وانظر بعين الإعتبار إلى السماء، وفكر لحظة في تلك الأجرام السماوية التي لا يحصرها العدد والتي تدور في نظام بديع وكلها تحمل الكثير جدّاً من الأسرار والحِكَم.

ولولا دوران الأرض حول نفسها فستجد قسماً منها منيراً وقسماً منها مظلماً. وحينها فإنه لا يمكن تمييز وقت العمل عن وقت الراحة.

وأيضاً أنّ دوران الأرض حول نفسها في مدة أربع وعشرين ساعة توجد بها حكم كثيرة. فلو طالت مدة دوران الأرض أكثر من ذلك فإن الأرض ستكون مثل كوكب عطارد الذي يبلغ الفرق في درجة الحرارة بين ليله ونهاره ألف درجة مئوية. ففي نهاره الطويل تزيد حرارته أكثر، وفي لياليه الطويلة تكون البرودة شديدة للغاية فتتجمد كل الأماكن.

وهكذا في ضوء هذه الحقائق انظر كيف أن الله تعالى جعل الليل يغشى النهار؟ وكيف جعل الليل للراحة والنهار وسيلة للمعيشة والحياة؟ وفكر في تجليات القدرة والرحمة الالهية في تعاقب كل منهما دون أي اختلال او خطأ.

وكذلك فإن الأرض لو لم تدر حول الشمس، ولم تكن درجة ميل الأرض في ذلك الدوران تبليغ ٢٣ درجة و ٢٧ دقيقة لما كانت هناك الفصول الأربعة، ولما ظهر الصيف ولا الشتاء ولا الربيع ولا الخريف. ولو لم تكن درجة الميل على هذا النحو الدقيق لضاع بخار الماء الذي يرتفع من المحيطات، ولصارت كل القارات قطعاً من الثلج.

أيضاً لو لم تكن المسافة بين الأرض والقمر على ما هي عليه الآن - والتي تبلغ ٥٠ ألف ميل بالضبط- وزادت عن هذا القدر لتحول المد والجزر الذي نراه على الأرض كل يوم إلى كارثة، ولغطَّت المياه كل القارات مرتين كل يوم. وحتى الجبال كانت ستتآكل في زمن قليل وتنمحي من الوجود.

فانظر إلى عظم هذا الكون وكثرة نجومه فكر كيف خلقها الخالق ﷻ، ونظمها، وجعل هذه النجوم والأجرام العملاقة تتعلق في السماء بغير عمد؟!

واسألْ نفسك هل أصاب الشمس أو القمر أي عطل في أي يوم؟ وهل احتاجا للإصلاح مرة كما نفعل في حياتنا الدنيا؟ وهل خرجت يومًا عشرات الموجودات في السماء عن مدارها التي قدرها الله ﷻ، أو توقفت واصطدمت إحداها بالآخرى كما يحدث في حوادث المرور عندنا؟!

تركُ التفكر ذنبٌ كبير

ما أعجب الانسان يصاب بالحيرة والدهشة إذا ما رأى قصرًا مزخرفاً مزيناً للغاية، فلا يستطيع أن ينسى ذلك القصر، ويظل يتحدث عن جماله طوال حياته. ولكنه لا

يرى ولا يقف عند ذلك الكون العظيم الذي هو معجزة إلهية خارقة للعادة، ولا يفكر بالشكل اللائق في بديع صنعها ولا يتحدث بما يكفي عنها. ومن لا يقف على مثل تلك الأشياء ولا يمعن النظر فيها يكون مثل الأحجار الصلبة التي لا يكون لها أي نصيب من أمطار الربيع المباركة.

مع أن ذلك القصر الفاني الذي أصاب الإنسان بالدهشة والحيرة هو ذرة ضئيلة من ذرات الدنيا التي هي واحدة من أصغر جسيمات ذلك الكون المعظم الفسيح المعجز.

إن مثل الإنسان الغافل عن التفكر في قدرة الله ﷻ يشبه حال تلك النملة التي بنت لها بيتاً في أحد قصور السلطان المرتفعة الجدران المتينة الأساس المزينة بأجمل الأشياء والمزدحمة بالخدم.

وذات يوم خرجت النملة من جحرها والتقت بأصدقائها ولم تقص عليهم شيئاً آخر سوى الجحر الذي تعيش فيه! وظلت تلك النملة بعيدة عن التفكر في القصر الذي تعيش فيه، وقوة السلطان الذي بناه وعظمته وسلطانه. ومثلما غفلت النملة عن ذلك القصر فإنها قد غفلت أيضًا عمن يعيشون فيه.

فالإنسان الغافل ليس عنده خبر عن بدائع الصنعة الإلهية الخارقة وعن الملائكة وعباد الله الخواص الذين يعيشون في ملكه .

إن النملة ليست لديها القدرة على معرفة وإدراك القصر الذي تعيش فيه، والجماليات التي تحتويه. ولكن الإنسان يستطيع أن يطوف بعوالم كثيرة عن طريق التفكر والتخيل، ويستطيع أن يدرك بدائع الصنعة الإلهية الخارقة.

ومن لطف الله تعالى وإحسانه على الإنسان أن جعله يدرك عجزه وضآلته أمام نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وجعله يعرف سجدات الشكر التي بها وحدها يمكن أن يكون «إنساناً». وبتعبير آخر فإن من يسجدون سجدات الشكر هم وحدهم من يستطيعون حمل شرف الإنسانية وقيمتها وقدرها. لأن الإنسان هو كائن لديه استعداد وقابلية للتفكر بحسب فطرته وخلقه، ولو ترك الإنسان جذوة التفكر التي لديه لتنطفئ وتخمد فقد خان تلك الأمانة الإلهية، ولم يؤد حقها، وحُرم من واحدة من أهم صفات الإنسانية.

وقد عبر مولانا جلال الدين الرومي -حبيب الحق عزّ وجلّ- عن حال الغافلين الذين يعيشون في هذه الدنيا بقلوب



غليظة جافية في هذه الدنيا التي هي مجمع الأسرار والحكم التي لا تعد ولا تحصى، ويشاهدون الرسائل الإلهية التي في المخلوقات بوجه عابس بليد فقال:

«ذات يوم جاء ثور إلى مدينة بغداد مركز العلم والحضارة في زمانها، وعبر المدينة من أقصاها إلى أقصاها ولكنه لم ير أيّاً من جماليات المدينة وعظمتها. ولكنه رأى قشر الشمام والبطيخ على جانبي الطريق. وذلك لأن الشيء الذي يليق بثور أو دابة هو أن يرى التبن المنتشر على الطريق و الحشائش والمراعي الممتدة على جانبيه».

وقد ورد في الأثر أن رجلاً في زمن موسى عليه السلام كان قد عبد الله تعالى ثلاثين سنة. وكان الله تعالى قد سخر له سحابة تحميه وتحرسه من حر الشمس. وذات يوم لم تأت تلك السحابة فظل تحت حر الشمس المحرقة. وعندما سألته أمه عن سبب هذا الأمر قائلةً:

«ألم ترتكب ذنباً؟

قال: لا. لم أرتكب ذنباً.

فقالت الأم: هل نظرت إلى السموات وإلى الأزهار وعندما رأيتها هل تفكرت في عظمة الله تعالى وقدرته أم غفلت عن هذا؟!.

فقال الابن: «نعم يا أماه لقد رأيت بدائع صنع الله تعالى حولي، ولكني قصرت عن التفكر فيها. وعندها قالت الأم: « يا بني! وهل هناك ذنب أكبر من هذا الذنب؟!! تب الآن واقلع عن ذلك الذنب».

ولهذا السبب يجب على كل مؤمن لديه عقل في رأسه ألا يترك فريضة التفكر طرفة عين. فالإنسان عندما يعرف بدائع صنعة الله تعالى الكثيرة في خلقه، ويفكر فيها ويتدبر؛ فإن معرفته بالله تعالى وجلاله وعظمته تكبر، ويزداد قرباً إلى الله تعالى.

وقد قال علي رضي الله عنه:

«من قرأ القرآن وعلم شيئاً من علم النجوم زاد إيمانه بالله تعالى، وقربه منه. ثم قرأ قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (يونس، ٦)

إن كل مخلوق خلقه الله تعالى يؤدي وظائف معلومة داخل النظام الإلهي. والإنسان قد استطاع أن يدرك شيئاً قليلاً من عطاء الله تعالى اللامحدود في مخلوقاته التي لا تعد ولا تحصى. ومن المؤكد أن الحكم التي لم يفهمها ولم يدرك كنهها أضعاف أضعاف ما استطاع أن يدركه ويعلمه.لأن الإنسان إذا استطاع أن يسمع فذلك بسبب

الجهاز الذي أعده الله له وهو الأذن. ولو استطاع أن يرى ويميز الألوان فذلك لأن الله تعالى أنعم عليه بنعمة البصر. والواقع أنه رغم وجود كثير جدّاً من التجليات الإلهية في مخلوقات الله التي لا تعد ولا تحصى؛ إلا أننا لا نستطيع إدراك كل هذه التجليات بسبب عدم وجود الأجهزة والإمكانات لدينا التي تمكننا من معرفة وإدراك تلك التجليات [٦].

والإنسان الذي لديه عقل محدود لا يستطيع أن يحيط بالمخلوقات ولا بالخصائص التي فيها بشكل كامل كيف يمكنه أن يدرك ويحيط بالله ﷻ خالق هذه الكائنات كلها؟!.

---

(٥) إن الكون بحسب العلماء المسلمين هو عبارة عن «أعراض وجواهر». فالجواهر هي الموجودات المادية، أما الأعراض فهي الأشياء التي يمكن إدراكها بوجود مادي. فمثلاً اللون أو الرائحة يشكل كل منهما أحد الأعراض. ويمكن إدراك هذا العرض فقط عن طريق وجود مادي. ومثلما ذكرنا في السابق فلو لم تكن العين لما تمَّ إدراك اللون، ولو لم يكن الأنف لما تم إدراك الرائحة. أما في الآخرة عندما تبدأ حياة أخرى بأوصاف أخرى مختلفة فإنه من الممكن إدراك موجودات لها ماهية الأعراض لم يكن في مقدورنا إدراكها في الدنيا. كما أنه من الممكن وجود أعراض أخرى لم يكن في استطاعتنا أن نعرفها بسبب عدم إعدادنا في الدنيا بالأجهزة اللازمة لاستقبال ومعرفة تلك الأعراض.

لذا فإن علماء الاسلام الذين أدركوا بعضاً من عظمته، وقدراً من تجليات صفاته قد أصابتهم الحيرة والدهشة حتى إنهم قالوا معبرين عن عجزهم: «عجزك عن الإدراك إدراك».

لإنه لا يوجد في المخلوقات التي خلقها الله تعالى أي تجل أو انعكاس أو قبس من حقيقة ذات الله تعالى. فكل شيء خلقه الله ﷻ قد تم بامتزاج تجلّي الصفات الإلهية. فالله تعالى لم يخلق مكاناً يستطيع أن يتحمل تجل الذات الإلهية عليه. فموسى عليه السلام عندما ألح في الطلب أن يرى الله تعالى كان جواب المولى ﷻ على هذا الطلب وتلك الرغبة أن قال له كما جاء في الآيات الكريمة:

﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٣)

ولهذه الأسباب فإن الإنسان الذي يظل عاجزاً عن إدراك حقيقة الصفات بشكل كامل يجب عليه من باب أولى أن يتوقف عند حقيقة الذات ولا يخوض فيها.

وما أجمل قول المرحوم نجيب فاضل الشاعر التركي:

السرور والزينة والسعادة في الذرات

وحولها النور يغمرها النور

إبداعك ياربي ممتزج بها

عرفت أنك أنت يا ربي أنت المعلوم المستور

الغلاف الجوي

توجد أسرار وحكم كثيرة في فراغ الهواء الذي يحيط بالأرض فالسحب التي تسبح فيه، والرياح التي تهب أحياناً شديدةً وأحياناً ضعيفةً، والرعد الذي نسمعه والبرق الذي نراه، والأمطار التي تسقط، والثلوج التي تهطل كل ذلك تجليات خارقة للعادة تتحقق بحسبان وقدر عظيم.

والقرآن الكريم يدعو الإنسان إلى التفكر في هذه التجليات التي بين السماء والأرض، ويدعوه إلى رؤية الأدلة التي تشير إلى القدرة الإلهية فيها، تقول الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة، ١٦٤)

والغلاف الجوي الذي يحتضن الأرض بحب وشفقة يعد أحد الأشياء التي توضح بجلاء رحمة الله تعالى اللامحدودة بعباده. فالغلاف الجوي يتكون من ٧٨٪ نيتروجين و ٢١٪ أوكسجين و١٪ غازات أخرى كثاني اكسيد الكربون والأرجون والهيدروجين والهيليوم وغيرها.

ومن المعروف أن الأوكسجين سريع الإشتعال إلى حد بعيد فلو زادت نسبة الأوكسجين عن هذه النسبة بمقدار ١٪ لزاد احتمال حرائق الغابات نتيجة إحدى الصواعق بنسبة ٧٠٪. أما لو ارتفعت نسبة الأوكسجين عن ٢٥٪ فإن ذلك يعني أن تحترق أغلب الأغذية النباتية التي نأكلها اليوم وصارت كومة من التراب.

ومن ناحية أخرى فإن هذا الغلاف الجوي يحافظ على توازن نسب الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون في الهواء رغم أننا نستعملهما باستمرار. ولو كان الإنسان والحيوان هما كل الموجودات في الدنيا لأسْتهلكا الأوكسجين كله الموجود في الطبيعة وحولوه إلى ثاني اكسيد الكربون. و كان ذلك سيؤدي إلى ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون بعد مدة بشكل ملحوظ مما يؤدي إلى تسمم البشر والحيوانات

وهلاكهما. ولكن القدرة التي أوجدت ذلك العالم خلقت النبات الذي يستعمل ثاني أكسيد الكربون ويحوله إلى أوكسجين ليستمر هذا التوازن المدهش العظيم في العالم، ولتستمر الحياة عليه.

فضلاً عن ذلك فان سُمْك الغلاف الجوي قد خُلق بميزان حساس؛ لأن هذا الغلاف لو كان أكثر سُّمْكاً لامتص الأوكسجين مع ثاني أكسيد الكربون، ولما نبتت النباتات، ولما خرج الزرع.

أيضاً ملايين عمليات التفاعل الحيوية التي تحدث في أجسامنا في كل لحظة تحتاج إلى الأوكسجين، فالرئة تستنشق الهواء وتعيده بعد ذلك بشكل مستمر. ووجود نسبة الأوكسجين في الغلاف الجوي بكثافة تتناسب تماماً مع التنفس ليوضح ويبين لنا أن هذا الأمر قد تم بتدبير بالغ ولم يُخلق عبثاً. فالله تعالى الذي خلق أجسامنا ويعرف سبحانه أنها تحتاج إلى الأوكسجين قد أكرمنا وأسبغ علينا نعمة الأوكسجين بشكل واسع، ووضعه بأفضل نسبة في الهواء ليسهل الحصول عليه وأن نتنفسه على أفضل شكل. وهكذا فمع كل نفس نأخذه ونخرجه توجد نعمة إلهية كبيرة معتبرة للغاية.

وعندما نركب إحدى الطائرات التي صُممت بأحدث التقنيات الفنية نسمع تحذيراً يقول: «إذا ما انخفض الضغط في الإرتفاعات العالية قم بوضع أقنعة الأوكسجين التي ستظهر بشكل آلي أمامك».

وإذا كان الحال هكذا فهل حدث أن تساءل أي شخص في تعجب وخوف هل سيزيد الأوكسجين في الغد وتصل نسبته إلى ٢٥٪ بدلاً من ٢١٪ ؟! أم هل ستنخفض عن هذه النسبة؟! وهل يجب عليّ في تلك الحال أن أحمل أنبوباً من الأوكسجين كي أتنفس؟! الإجابة بالقطع هي: لا بالتأكيد. لأن كل فرد سواء كان من المؤمنين أو الكافرين يعيش في الدنيا ويسير حياته معتمداً على أن هذا الكون يحكمه نظام إلهي محدد فلا يحمل هماً. أما لو كان الأمر عكس تلك الحال فإن الإنسان لو انتبه لشتى أنواع الأخطار والمهالك الحياتية التي يقابلها فإن حياته تتأزم ولا تَمْضي في طريقها بسهولة.

ومن ناحية أخرى فإن الهواء يكون مثل مرآة تضئ ما حولنا فالضوء لا يعطي الضياء بدون أن يصطدم بالمادة. والضوء الذي يصطدم بقطعة صغيرة يتبعثر مثل الألعاب النارية وينتشر في الأطراف على شكل حرارة وضوء.

أما الفراغ الكوني خارج الغلاف الجوي فهو مظلم رغم أن الضوء يأتي من الشمس. والسبب في ذلك هو عدم وجود شتى أنواع الجزئيات والذرات. فمثلاً لا يوجد ضوء على القمر بسبب عدم وجود غلاف جوي له فيتبعثر الضوء القادم من الشمس. ولهذا السبب فإن القمر على الرغم من أنه ينير الأرض، ورغم أنه يقع تحت شلال ضوئي مستمر قادم من الشمس؛ إلا انه مظلم دائماً.

وهذه التجليات المعجزة هي أدلة واضحة للغاية على أن الله تعالى قد خلق الدنيا بقدر، وفق شروط خاصة تمكن الإنسان من المعيشة عليها. وفي نفس الوقت فإن هذه التوازنات الحساسة التي تجعل الحياة ممكنة إلى جانب أنها عطاء كبير جدّاً من الله ﷻ على عباده، فهي أيضاً من الدلائل على وجوده ﷻ وقدرته اللامحدودة.

والواقع أن حركة كل موجود في الكون تتم داخل نظام إلهي محدد، وأن كل شيء مخطط ومحسوب ومنظم بقدر. وكل ذلك يجعل من الضروري قبول وجود صاحب القدرة والنظام والتخطيط الذي أبدع كل هذه الأشياء.

وعلى ذلك فعندما يقول الملحدون أن الحياة والكون قد ظهرا من تلقاء نفسيهما، وأنهما قد جاءا بمحض الصدفة البحتة يكون ذلك من قبيل السفسطة المثيرة للضحك.

وقد أوضح إسماعيل فني ارطُغرل (١٨٥٥-١٩٤٦) هذه الحقيقة بذلك المثال فقال:

«عندما ترى حساباً وانتظاماً في مكان ما، فإنه من المقطوع به عقلاً وجود مدبر ومنظم في ذلك المكان. ولنفترض أن لديك حديقة، وأنك غرست فيها غرساً كثيراً بترتيب معين حول تلك الحديقة. وذات يوم ذهبت إلى هناك ورأيت أن بعض هذا الغرس قد تحرك للأمام وبعضها تحرك للخلف. وعندما سألت عن سبب حدوث ذلك الأمر أجابك البستاني قائلاً:

لقد هبت عاصفة شديدة فأحدثت هذا الأمر. فقبلت هذا الجواب. ولكن في يوم آخر ذهبت إلى هناك فوجدت أن الغرسة الرابعة بقيت في مكانها، واقتلعت الغرسة الخامسة، أو أن الرابعة بقيت وتحركت الغرسة الخامسة. وعندما سألت البستاني عن سبب حدوث ذلك أجابك البستاني بنفس الجواب فهل تصدق ذلك؟! بلا شك فإننا لن نصدقه وسوف نحيل هذا الجواب على سوء نية الشخص الذي يقول هذا القول الغريب. لإننا لو استطَعْنا أن نحمل الواقعة التي حدثت أولا على الصدفة فإننا لا يمكن أبدًا أن نفعل نفس الأمر مع الواقعة الثانية؛

لأن الواقعة في هذه المرة تدخل في إطار العمل المنظم المخطط المدروس»[٧].

أي أن كل إنسان لديه مَسَاحة من التفكير، وفي رأسه عقل لا يستطيع أن ينكر أن هذا الكون يسير وفق حسابات لا نهاية لها داخل توازنات حساسة بالغة الدقة. وسوف نعرض في الصفحات التالية بعضًا من تلك التوازنات الإلهية.

الضغط الجوي

إن الغازات التي تشكل الغلاف الجوي تطبق الضغط بقوة ١ كجم تقريباً على كل ١ سم٢ يعني أن جسد الإنسان يكون تحت ثقل قدره ١٥ طن تقريباً، وقد وازن الحق ﷻ هذا الأمر بتوازن عظيم أيضاً. فمهما يكن ضغط الهواء في الخارج فإنه يخرج من داخلنا نحو الخارج ضغط يعادل هذا الضغط تماماً. والفرق بين الضغطين عند انخفاض الضغط الجوي يكون السبب في عدم الراحة التي يعانيها من يصعدون إلى أعلى ويسبب نزيف الأنف. ولذا يرتدي رواد الفضاء ملابس خاصة لتحافظ على

(٦) أجوبة حول حقائق الإيمان، ص٢١ - ٢٢، دار سبيل للنشر، استنابول ١٩٧٨

ضغط الهواء عندما يتجولون في الفضاء.

توازن الحرارة والبرودة

إن ذرات بخار الماء وثاني أكسيد الكربون المنتشرة بشكل كاف في الهواء تحقق توازناً مدهشاً مع طاقة الحرارة المرتفعة. وهذه الذرات تمتص قسماً كبيراً من الضوء القادم من الشمس نهاراً لتمنع ارتفاع درجة الحرارة في النهار بشكل مفرط. وعندما يكون الوقت ليلاً وتغرب الشمس وينقطع الضوء فإن الحرارة التي امتصتها ذرات البخار تحافظ على الحرارة مثل صوبة النبات، ولا تُفقد في فضاء الكون البارد. فمثلا القمر لكونه محرومًا من سقف حافظ كهذا السقف فإنه يلتهب من الحرارة نهاراً ويتجمد من البرودة ليلا.

الرياح

ينقسم الغلاف الجوي إلى طبقات مختلفة بحسب درجة الحرارة، والضغط، ومقدار الرطوبة، والأحداث التي تجري داخله. والطبقة الأولى في الغلاف الجوي هي طبقة «التربوسفير» وتجري بها أحداث مثل الأمطار والثلوج والرياح. وهذه الطبقة التي تبتعد عن سطح الأرض بمقدار ١٦كم تنخفض فيها درجة الحرارة حتى

تصل إلى ٥٦ درجة مئوية تحت الصفر، وفي هذه الطبقة من الهواء يتأسس نظام دوري متكامل .

وبسبب ميل محور الأرض فإن أشعة الشمس لا تتعامد على منطقة خط الإستواء فقط، وهكذا تتوزع الحرارة على المناطق الإستوائية. وفي هذه المناطق يتم تخزين الحرارة بمقدار واسع نتيجة سخونة الهواء، وسطح الأرض البالغ الشدة وهكذا يمكن القول أن تجمع هذه الحرارة يوفر القوة والطاقة اللازمة للرياح.

إن الآف من الأطنان التي تتبخر من البحار تركب على ظهر الهواء الرقيق. وتقوم الرياح بتجميع هذه المياه ونقلها إلى الأراضي التي تحتاجها. ونتيجة هذه الدورة المستمرة فإن كل منطقة في هذه الدائرة المكتملة المدروسة تأخذ نصيبها من الماء بتقدير الله تعالى ورحمته فلا تظل مناطق جافة ومناطق ممطرة بشكل مستمر.

كما أن نقل الحرارة يتم نتيجة دوران الغلاف الجوي وفق خطة مكتملة رائعة للغاية. فبينما الهواء البارد في المدارات الشمالية ينزل إلى المدارات المنخفضة أكثر، فإن الهواء الساخن يرتفع إلى المدارات المرتفعة التي في الجنوب. ويتم ذلك الأمر بسبب حركات نظم الضغط الجوية المنخفضة والمرتفعة في نواحي الشمال

والجنوب، وأيضاً بمساعدة تيارات الرياح القوية التي في المستويات العالية.

أيضاً إمداد الشمس لسطح الارض بالحرارة بدرجات مختلفة يفتح الطريق لتسخين كتل الهواء التي في الغلاف الجوي بصورة مختلفة. فالهواء الساخن يصعد إلى أعلى وبعد ذلك يأتي الهواء البارد بدلاً منه.

وهكذا فإن وجود الضغط الجوي المنخفض في المكان الذي يوجد به الهواء الساخن على سطح الأرض، ووجود الضغط المرتفع في الأماكن التي يوجد بها الهواء البارد يشكلان مصادر الهواء المتحرك التي تُسمّي «مراكز الهواء».

وفي نهاية المطاف تبدأ ذرات المواد الدقيقة اللطيفة في التحرك على شكل رياح. ومن خلال هذه الرياح يتم نقل الرطوبة والحرارة والكثافة والطاقة التي في الغلاف الجوي، وتُنقل حبوب اللقاح التي تساعد على نمو النباتات إلى الأماكن التي تحتاجها.

وفي هذا يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر، ٢٢)

وهكذا فإن الرياح مثل كل المخلوقات التي في الكون تحني رقبتها بطاعة مطلقة لسطوة الحق ﷻ وقدرته وعظمته. فتكون الرياح إذا أراد الله تعالى وسيلة لرحمته ﷻ، وإذا أراد الله تعالى تتحول إلى تجل قاهر مهلك مدمر. والآية الكريمة التي تعبر عن كيفية هلاك قوم عاد بالريح هي مثال نموذجي يعبر عن هذه الحقيقة، يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ، تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر، ١٩-٢٠)

فوائد الهواء الأخرى

كما أن الهواء مثلما يحمل آلافَ الأطنان من الماء على أكتافه الرقيقة، فإنه يحمل أيضاً مئات من الطائرات الجوية، وينشر أيضاً الضوء والحرارة. وهو أيضاً يحمل إلى آذاننا الصوت بمئات الأطوال الموجية المختلفة، وتعد التليفونات المحمولة(الجوالات) أكثر الأمثلة اللافتة للنظر في زماننا الحالي على هذا الأمر.

ومن ناحية أخرى فإن الهواء يحمل إلى أنوفنا الروائح شديدة التنوع والإختلاط. ولولا وجود الغلاف الجوي لما اسْتَطَعْنا أن نسمع أصوات الأصدقاء الجالسين بجوارنا،

ولما شع الضوء، ولما أنار النهار وملأ الضياء الأرض. فضلاً عن ذلك فإن الهواء يؤدي وظيفة حياتية عندما نتنفسه في رئتنا وفي عروقنا. وهكذا فإن الهواء يذّكر المؤمنين أهل التفكر بعظمة الحق ﷻ وقدرته وتجليات رحمته التي لا حصر لها ولا عدَّ.

تنقية إلهية

أما الطبقة التي تلي طبقة «التربوسفير» فهي طبقة «سترتوسفير» التي ترتفع عن سطح الأرض بـ ٥٠ كم. ومرة أخرى فإن الحرارة ترتفع في هذه الطبقة التي تمنع مجيء الإشعاعات الضارة والطاقة المرتفعة إلى الأرض. كما أن طبقة الأوزون توجد في هذه الطبقة.

والأوزون هو جزيء به ثلاث ذرات من الاوكسجين، ويقوم الاوزون بتنقية أضرار أشعة الشمس. فالإشعاعات فوق البنفسجية التي تأتي من الشمس تقلل سرعة نمو النباتات، وتسبب سرطان الجلد للإنسان، وتسبب الضرر للعين، وتزيد من خطر الإصابة ببعض الأمراض المعدية. وهكذا فإن طبقة السترتوسفير تمنع الأشعة البنفسجية القادمة من الشمس وتعكسها، وتحول الأوكسجين إلى

أوزون بهذا التوازن الكيميائي الخارق.

ورغم أن الأوزون هو في الأساس غاز شديد الخطورة وقاتل حتى أن استنشاق واحد على مائتين من جرام واحد منه تكفي لقتل أي إنسان، إلا أن رحمة الله تعالى وحكمته جعلت هذه الطبقة السامة لهذا الحد تمنع ضرراً حياتياً كبيراً للغاية يهدد الإنسان، وجعلت هذا الغاز بمثابة مصفاة إلهية لحماية توازن المناخ.

سقف الحماية

تعد طبقة "الميزوسفير" التي تمتد حتى ٨٠ كم بمثابة الطبقة الوسطى للغلاف الجوي، وهذه الطبقة تؤدي وظيفة التصدي لسيول الشهب.

فالشهب التي تعبر عوائق المشترى و زحل والقمر تنجذب إلى الأرض بفعل الجاذبية الأرضية، وتدخل إلى الغلاف الجوي بصوره مدهشة. وفي تلك الحادثة التي تسمي "الانزلاق النجمي" تحترق تلك الشهب عندما تتلامس مع الهواء وتتحول إلى غبار داخل "الميزوسفير".

فلو لم تكن هذه الطبقة الحارسة تحيط بالأرض أو كانت أقل سُُمْكاً لسقطت ملايين الشهب على سطح الأرض، واحترق وجه الأرض وامتلأ بالثقوب مثلما هو

الحال في القمر.

وهكذا فإن تحول هذه الكرات الساقطة من السماء إلى غبار وتراب قبل أن تأتي إلى الأرض وتسقط على رؤوسنا هو أثر من آثار رحمة الله تعالى التي لا تنتهي.

وبعد ذلك فإن كل ذرة صغيرة من ذرات الغبار تلك تكون نواة لقطرة صغيرة من المطر. لأنه لكي تتشكل وتتكون السحب في السماء فلابد أن تكون الذرات صغيرة ودقيقة الحجم للغاية سواء التي مصدرها الأرض أو التي مصدرها الفضاء. ويجب أن تصل هذه القطع والذرات الصغيرة إلى الغلاف الجوي الأعلى.

وهكذا تبدأ هذه الذرات الصغيرة في التكثف والتراكم مع الرياح الرطبة التي حملتها إلى هناك وتتشكل نواة لإحدى السحب. ونواة السحب تلك ستتحول إلى قطرة مطر صغيرة للغاية وفق خطة فيزيائية وحسابية معينة، وتبدأ هذه القطرة الصغيرة الدقيقة في السقوط نحو الأرض.

وقبل أن تكتشف أي من خواص الغلاف الجوي فإن الله ﷻ الذي أوجد السموات والأرض قال في كتابه العزيز:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء،٣٢)

موجات الراديو والإشعاع

يطلق على الطبقات التي يمتد تأثيرها حتى ارتفاع ٥٠٠–١٠٠٠ كم اسم «الايونوسفير»، وفيها تكون الذرات والجزئيات متأينة أي محملة بشحنة كهربائية سواء بإعطاء الكترون أو بأخذ الكترون. ونتيجة تأيين الذرات بسبب ابتلاع إشعاعات الشمس ذات الطاقة المرتفعة فإن الحرارة في تلك الطبقة يمكن أن ترتفع إلى ٢٠٠٠ درجة مئوية.

وطبقة «الأيونوسفير» تكون مثل مرآة مصنوعة من إيونات الغلاف الجوي. وهذه المرآة تنعكس عليها الموجات الكهرومغناطيسية التي ترتفع من الأرض إلى الفضاء معطية الموجات اللاسلكية والراديو التي تعود مرة أخرى إلى الأرض. وهذه الموجات المنعكسة تصل إلى كل بقعة من بقاع الدنيا. وهكذا يمكن رصد وتعقب هذه الموجات المنتشرة في كل مكان بسهولة.

ومثلما رأينا فإن الحق ﷻ قد جعل الأرض –التي تسبح في فضاء مظلم بارد– عُشاً وملجأً مملوءً بالحياة والدفء المناسب. فكل شيء يسير بقدر وحكمة فحتى

أصغر نسمة هواء على وجه الأرض تجعل المناخ معتدلا لا تخلو من الحكمة، وحتى أصغر ورقة في أية شجرة لا تسقط من تلقاء نفسها.

إن كل شيء من أصغر مخلوق إلى أكبر مخلوقات هو عبارة عن لوحة رائعة تعرض عظمة الصنعة الإلهية وإبداعها، يقول الحق عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(لقمان،٢٠)

فَيَا لَسعادة من يقرأ سطور كتاب الكون المملوءة بالحكم، والمحملة بالحقائق، ويفهم ما بها من أسرار وعظات، ويتعمق في آفاق التفكر فيها.

السحب والمطر والثلوج

فكر في السحب تسبح في هواء البحار العظيمة الضخمة. ومن وظائفها منع الحرارة الشديدة عن الدنيا. حيث تتبخر المياه كلما زادت الحرارة أكثر فتتكون السحب أكثر. وتقوم هذه السحب بعكس هذه الإشعاعات القادمة من الشمس كأنها مرآة عاكسة. وهكذا تبقى حرارة

الأرض متوازنة.

إن الله تعالى الرحيم عندما يريد أن ينزل المطر يرسل الرياح مبشرات، وبعد ذلك تحمل هذه الرياح السحب مثل موجات البحر، وتدفعها بأمر الله تعالى إلى البلاد والأماكن حيث يريد سبحانه.

فالله تعالى -الذي ينشر السحب في السماء مثلما يريد ويجمعها- هو الذي يخرج المطر من بينها فتنمو أنواع الثمار المختلفة في الأرض. وهذا الأمر يذّكرنا بأن الله تعالى سيُحْيي الموتى مرة أخرى بنفس الطريقة، ويطلب من البشر أن يحصلوا على نصيبهم من تلك اللوحة المعبرة العظيمة[٨]

والله ﷻ ينزل رحمته مطراً على عباده، ومن يعيشون في بلاد صحراوية جافة تغمرهم السعادة والفرحة بهذا النعمة، ويعود إليهم الأمل بعد اليأس؛ لأن الحق ﷻ يقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ (الشورى، ٢٨)

فالله ﷻ يربي عباده المذنبين أحياناً بالقحط وأحياناً بالمطر، فيعذبهم بما يشاء ويحفظهم بما يشاء. يقول الحق

(٨) انظر: الأعراف، ٥٧؛ فاطر، ٩

ﻷ في كتابه العزيز:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ (النور، ٤٣)

أي أن ربي ﻷ -عندما يريد- يشّكل علاقات السماء والأرض تبعاً لتصرفات البشر وعوالم قلوبهم.

وهو سبحانه يُرسل المطر على شكل قطرات فلا تتصل أي منها بالأخرى ولا تتحد معها أبداً. وكل قطرة من المطر تذهب إلى طريق مرسوم لها فلا تحيد عنه أبداً فلا تتأخر واحدة ولا تسبقها من تأتي بعدها. ولو اجتمع الأنس والجن كلهم كي يعدوا قطرات المطر التي تسقط على قرية ما، أو أن يحسبوا كم قطرة تشكل هذا الماء لعجزوا عن فعل هذا الأمر وحسابه. فالله تعالى وحدة ﻷ الذي خلقها وهو الذي يعرف عددها.

ومع هذا فإن هناك تجليات إلهية لا يمكن حسابها وإحصاؤها في ذلك الكوب المملوء بالماء العذب، وفي

حبات الثلج التي تتساقط مثل نتف القطن البيضاء.

فمن يجعل أصغر فرع في قمة الأشجار يستفيد من ماء المطر والثلوج النازل من السماء إلى الأرض؟! فالماء الذي ينتشر على كل أجزاء أوراق الأشجار ولا يُرى يكون غذاءً لكل ذرة في تلك الشجرة عن طريق الشعيرات التي في تلك الأوراق. فالماء الذي من طبيعته أن يهبط من أعلى لأسفل يا للعجب كيف يرتفع لأعلى؟!!.

ولو نزلت قطرات المطر بحسب قانون الجاذبية الأرضية فإن كل قطرة منها كانت ستضرب الأرض بسرعة تبلغ سرعة رصاصة تخرج من فوهة بندقية. ولكن لأن ذلك المطر يحمل الحياة للأحياء، فإن كل حبة من ذلك المطر تسقط على الأرض بسرعة ثابتة بحسب الاصول دون أن تؤذي أحداً أو تهدم بيتاً أو تتلف زرعاً. وذلك لأن القطرات تتشكل تبعًا لمقياس معين وتتحول إلى قطرات مطر صغيرة للغاية. وبعد ذلك فإن قوة رفع الهواء تعادل تأثير قوة الجاذبية الأرضية وتجعل هطول المطر على الأرض يتم بسرعة ثابتة.

وهكذا ألا تكفي هذه الحقائق وحدها لكل من ينظرون بعين الإعتبار لكي نعرف مدى عظمة ذلك النظام

الإلهي، وذلك التوازن الدقيق الذي وضعه الله تعالى في الكون الذي نعيش فيه لندرك أن علم ربنا ﷻ وقدرته وحكمته لا نهاية لها.

التفكر في الأرض

إن العباد الأتقياء يتعمقون في التفكير فيعرفون لغة الزهور التي تَتَفتَّح، والطيور التي تغرد، والأشجار التي تثمر. والجمال والرقة واللطافة جميعها التي في تلك الأشكال تنعكس على حياتهم الروحية فتجعلهم أصحاب أرواح رقيقة مثل الزهور، وأصحاب كرم مثل الأشجار المثمرة، وهؤلاء هم السعداء الذين استحقوا ثناء الله ﷻ عليهم في كتابه العزيز.

فالحق ﷻ قد أبدع الأرض في أجمل شكل وجهزها لتساعد البشر على الحياة فيها. فقد خلق الله تعالى الأرض في وضعية حركية معتدلة ليتمكن الإنسان من شق الطرق والسير عليها، وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٢٢)

ويقول أيضاً:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (النبأ ٦ – ٧)

ويقول ﷻ:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك،١٥)

فالله تعالى يتحدث كثيرًا في كتابه العزيز عن الأرض لكي يلفت نظر الإنسان وبصره للحكم الكثيرة التي فيها. فظاهر الأرض مكان للأحياء، وباطنها مكان للأموات. وفي ذلك يقول الحق ﷻ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ (المرسلات، ٢٥-٢٦)

انظر إلى الأرض الميتة كيف تحيا عندما ينزل عليها الماء فتخضّر وتنبت من كل زرع بهيج، وتخرج من جوفها من كل نبات مختلف أُكله ولونه؟! وانظر كيف ثبّت الله تعالى الأرض بالجبال الرواسي الشامخة؟! وكيف يُحفظ الماء تحت تلك الجبال ؟! وكيف تتفجر الينابيع والأنهار على سطح الأرض؟! وكيف يخرج الماء العذب الفرات من تلك الحجارة الصلبة والتراب المتسخ ؟! وكيف يهب الماء الحياة لكل شيء؟! وكيف تنبت الأشجار والزروع المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى كالقمح والعنب والزيتون والنخيل والرمان؟! وكيف أن هذه الثمار المتنوعة مختلفة

اللون والطعم والرائحة والشكل والهيئة؟! وكيف أن الله تعالى فضل بعضها على بعض في الأكل مع أن هذا كله يسقى بماء واحد، وينبت في أرض واحدة؟!!.

النباتات

عندما تسقط بذرة على الأرض وتؤثر فيها رطوبة الأرض تبدأ في النمو والكبر. وأثناء هذا النمو تنشق تلك البذرة فيخرج من القسم العلوي تلك الشجرة التي تمتد فوق الأرض، ويخرج من القسم السفلى تلك الجذور التي تمتد وتتعمق في باطنها. وهذا أمر مثير للدهشة لأن طبيعة هذه البذرة واحدة، والتأثيرات الخارجية واحدة إلا أنه يخرج منها جزء يرتفع في الهواء ويمتد إلى السماء، وقسم يدخل في الأرض ويتعمق فيها. ونشأة شيئين متضادين متداخلين من شيء ذي طبيعة واحدة هو أمر مثير للحيرة والدهشة. لكننا نعرف وندرك أن هذا يكون بإرادة خالق عظيم له حكمة في كل شيء.

ثم بعد ذلك تنمو من تلك البذرة شجرة وارفة الظلال كثيفة الأوراق والأغصان، وتتفتَّح الأزهار وتبتسم على تلك الأغصان، ثم بعد ذلك تتحول تلك الأزهار إلى ثمار يانعة. فضلاً عن ذلك فإن هذه الثمار تكون ذات طبيعة متنوعة تحتوي في داخلها على مواد مفيدة لجسم الإنسان.

وفي كل ثمرة منها توجد خواص مختلفة فمثلاً بينما بذور العنب يابسة جافة، فإن ثمرة العنب تكون رطبة طرية. ومن المؤكد فإن ظهور أطعمة ذات خصوصيات مختلفة من بذرة واحدة تعرضت لنفس التأثيرات لهو بالقطع تدبير وُجُودي من صاحب القدرة والحكمة البالغة.

فضلاً عن ذلك فإن الله تعالى قد جعل من تلك النباتات صيدلية طبيعية لشفاء كثير من أمراض بني البشر. فبعض تلك النباتات شفاء، وبعضها غذاء، وبعضها يعطي القوة للجسم، وبعضها يحي الإنسان، وبعضها سام يقتله. وبعض النبات عندما يتجدد ينقلب إلى مادة أخرى، وبعضها الآخر يعطي الإنسان السعادة والحياة، وبعضها يهدئ الإنسان ويخدره.

إضافة إلى ذلك فإن تلك النباتات تجهز الغذاء اللازم لها عن طريق ثاني أكسيد الكربون والماء، وتطلق الأوكسجين اللازم لتنفس المخلوقات كلها فما أعظم هذه الأحداث لمن اعتبر.

والحاصل أنه ليس هناك ورقة تنمو ولا حطب يتبقى إلا وفيه فوائد جمة للبشر، ولكن الإنسان لا يبذل طاقته وجهده للوقوف على كنه هذه الفوائد.

إن أوراق النباتات التي تنبت من الأرض بأشكال



وألوان وروائح وطعوم متنوعة مختلفة، تستطيع -مهما صغرت وقل شأنها- أن تجري عمليات كيميائية لا يستطيع أي كيميائي مقتدر على القيام بها، فيالها من أشياء عظيمة معجزة.

والواقع أن النظام والتوازن في نمو النباتات هو تجل مختلف للعظمة الإلهية. فعلى سبيل المثال فإن شجرة الدلب تنتج ملايين البذور كل عام. ويكون لكل واحدة منها ما يشبه المظلة من الوبر والزغب كي تتوزع وتتفرق في سائر الأنحاء. وتحمل الرياح هذه البذور إلى الأماكن البعيدة. فلو نبتت شجرة دلب جديدة من كل بذرة من بذور تلك الشجرة الأولى الأم لَغَطَّى شجر الدلب وجه الأرض، واحتل كل مكان فيها بعد وقت قصير. أي أن شجرة دلب واحدة يمكن أن تضّيق الأرض على أهلها وهذا المثال يمكن أن يشمل الأحياء الأخرى كلها.

فعلى سبيل المثال قبل سنوات عدة أراد الاستراليون أن يصنعوا سياجاً من نبات من فصيلة الصبّاريات. ولكن بسبب عدم وجود حشرة تتغذى على هذا النوع من الصبار في استراليا فقد بدأ هذا النبات ينمو بسرعة كبيرة.

وفي نهاية هذا التطور الذي أصاب الاستراليين

بالاضطراب والبلبلة غطى نبات الصبار هذا مساحة تعادل مساحة انجلترا!. وأجبرت أهالي المدن والقرى التي صادفتها على الطريق على ترك أماكنهم ومحت مزارعهم وقضت عليها.

وقد قلب علماء الحشرات في استراليا الدنيا رأساً على عقب ليجدوا وسيلة للقضاء على هذا الصبار حتى وجدوا حشرة تعيش على ذلك النوع من الصبار ولا تأكل شيئاً غيره. وعلى الفور أحضروا تلك الحشرة إلى استراليا وبدأت تلك الحشرة في النمو بشكل سريع، ولم يمض وقت طويل حتى استطاعت تلك الحشرة أن تتغلب على ذلك الصبار. وانحصر الصبار اليوم في مساحة ومنطقة محددة للغاية. وتم التخلص من هذا البلاء وتلك المصيبة وتم الابقاء على تلك الحشرة بمقدار يكفي فقط لأن يظل الصبار تحت السيطرة.

وهذا المثال السابق يظهر أن الكون يسير وفق توافق وتوازن بيئتي منتظم ومحدد لا يستطيع العقل أن يدرك سره بسهولة. وعلى ذلك فإن أي عقل أو منطق لا يستطيع أن ينكر وجود قدرة تمنع نمو بعض النباتات، وتكاثر الحيوانات على هذا النحو المفرط مما يهدد الحياة على الأرض.



ومن ناحية أخرى فإن ما يثير الدهشة هو نمو ملايين الأنواع المختلفة من الزروع والفواكه في تربة واحدة، ذلك أن ربنا الرازق العاطي قد أعد موائد متنوعة لمخلوقاته من كل جنس ونوع.

فمثلاً لا يأكل الإنسان كثيرًا مما يأكله الضـأن، ولا يأكل الضأن كثيرًا مما يأكله الإنسان، وذلك يعني أن نعم الرزق قد قُسمت بين المخلوقات بتوازن دقيق للغاية. وهذه الآية التي تعرض قدرة الله تعالى في توفير الرزق لمخلوقاته وتقسيمِهِ تدعونا للتفكر إلى أقصى حد. ويقول الحق ﷻ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت، ٦٠)

وفي الحقيقة فإن إحضار الطائر السليم لحبات العلف ليضعها في فم طائر مريض لهو تجلٍ للرحمة الإلهية وما أعظمه من تجلٍ.

كما أن إعداد الحق ﷻ لموائد إلهية لا تحصى تتسع لكل مخلوقاته منذ خلق الدنيا وإلى اليوم، واستمرار هذا الأمر في كل وقت لهو عبرة ما أعظمها من عبرة.

لأننا لو تمعنا في هذا الأمر لوجدنا أن ثلاثة أرباع الأرض مغطى بالماء، وقسم كبير من هذا الربع من تلك اليابسة مناطق قاحلة أو صحراء غير صالحة لنمو النبات والقسم القليل جدّاً المتبقي هو التربة الصالحة للزراعة.

ولكن ما أعظم قدرة الله ﷻ الذي جعل هذه الأرض -بتغيرات لا تنتهي- مصدرًا للغذاء الذي يكفي لإشباع الأحياء كلهم.

البحار الواسعة

من المعلوم أن ثلاثة أرباع اليابسة مغطي بالمياه. وفي ظل هذا الوضع فلا بَرْد الأقطاب المتجمدة للأرض يستطيع أن يؤثر في الدنيا كلها، ولا حرارة المنطقة الإستوائية تستطيع أن تحرق تلك المناطق. فاليابسة التي تسخن بإشعاعاتِ الشمس نهاراً توزع هذه الحرارة المتجمعة إلى الأطراف مثل الرادياتور[٩] تماماً.

أما البحار فرغم أنها تأخذ ملايين السعَّرات الحرارية من الشمس، إلا أنها يمكن أن تسخن بدرجات قليلة للغاية. ولكن عقب هذا التسخين لا تبرد البحار بسهولة.

(٩) الرادياتور: هو جهاز حفظ توازن الحرارة في المحركات

أي أن كون البحار أكثر من اليابسة هو بمثابة منظم الحرارة في النظام المناخي الذي يمنع السخونة الزائدة والبرودة البالغة. وفي نفس الوقت فإنه عن طريق التَّبخُر يتم تأمين احتياجات اليابسة من الماء. فلو كانت البحار على الأرض أقل من حجمها الحالي لقلت نسبة التَّبخُر وقَلَّ الماء وتسبب ذلك في تحول الأرض إلى صحراء جرداء بسبب الجفاف.

والواقع أن خصائص الأحياء والكنوز التي في أعماق البحار لا تقل عن التي توجد على سطح الأرض. فمن البحر يُستخرج اللؤلؤ والمرجان وأحجار الزينة الأخرى، ومنه تستخرج الأغذية الطازجة التي لها مكانة مهمة للغاية في تغذية الإنسان.

الماء

إن حياة كل الأحياء على ظهر الأرض ترتبط بالماء، ولو أن الإنسان احتاج شربة ماء ولم يستطع أن يجدها، وكان يملك خزائن الأرض كلها لما تردد لحظة أن يدفع خزائنه كلها مقابل تلك الشربة. ثم بعد ذلك لو لم يستطع أن يخرج ذلك الماء الذي شربه لما تردد أيضاً أن ينفق كل

ما يملك ليتمكن من إخراجه. فما أعجب الإنسان كيف يعظم في عينه الدرهم والدينار والجواهر ويغفل عن إدراك عظيم نعمة الله تعالى التي في شربة ماء.

والواقع أن أي إنسان يستطيع أن يفكر في تلك الحقائق التي لا حصر لها -مثل تلك الحقائق- بما يليق لن يتأخر عن إدراك مدى احتياج الأحياء كلهم على ظهر الأرض إلى مساعدة علم واسع، وقدرة بالغة من أجل أن يتمكن من الحياة والعيش. ويفهم أنه يعيش في عالم من المعجزات والخوارق الإلهية داخل ظروف تساعده على الحياة في تلك الظروف التي لا تستطيع أية قوة بالقطع على تحقيقها بمفردها. وأيما عقل يفهم هذا الأمر ويدركه ويذعن له لا يمكن أن يقع في جحود و انحطاط أن يعصي الله تعالى خالق هذه العوالم ومنظمها.

الحكم والأسرار في الحيوانات

يجب أن ننظر بعناية إلى الطيور التي تطير في السماء، وإلى الحيوانات البرِّية الوحشية والمستأنسة، وإلى الحشرات الدقيقة التي ترى بصعوبة؛ لأنه توجد فيها عجائب عظيمة. ولا تملك إلا أن تتعجب وتندهش لعظمة الله تعالى الذي خلقها وقدرته وعظمته.

فكيف رَكَّب الحق ﷻ تلك الأعضاء المدهشة في تلك الحيوانات الصغيرة التي تراها العين بصعوبة ؟! وكيف جعلها تؤدي وظائفها دون أي نقصان ؟! وما هي خصوصيات تلك الحيوانات التي استطاع الإنسان أن يكتشفها، والتي هي كيفيات فوق إدراك الإنسان وتصوره؟!.

والإنسان لو نظر بعناية ودقة إلى الحيوانات التي في الطبيعة وإلى أشكالها وصورها، ثم يعيد الكرة وينظر بنظرة اعتبار إلى الفوائد التي يحصل عليها منها مثل الجلد والصوف واللبن واللحم فسيرى رحمة الله ﷻ ولطفه الذي لا نهاية له . فالله تعالى ربنا العلي القدير قد أعطى لهم جلداً خاصاً لحمايتهم من البرودة، وأنعم عليهم بأظفار غليظة ليحافظ على أقدامهم، ومواجهة إحتياجاتهم كلها بأجمل شكل وأفضله.

فمثلاً الفراشات التي تعرض جسدها داخل إطار من النقوش الرائعة الفاتنة تحكي مراراً وتكراراً بلسان الحال ما تعجز عنه الكلمات. وهذه واحدة فقط من البدائع الإلهية اللامحدودة التي تُعرض لتنظر العيون، وتدرك العقول، وتشعر القلوب.

وكيف أراد الله تعالى في القران الكريم أن ننظر إلى الإبل ونفكر كيف خُلقت، فقال ﷻ:

﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية، ١٧-٢١)

أي أننا عندما نمعن التفكير في كيفية خلق الحيوانات والمخلوقات الأخرى سنرى كثيراً من تجليات العظمة الإلهية.

فالحق ﷻ قد أعطى خصوصيات وخواص لسائر الأحياء التي تعطي نواتج مختلفة رغم أنها تتغذى بأغذية متشابهة. وكلها تكمل بعضها البعض بشكل يجعل الحياة ممكنة بتكاملها.

فمثلاً عندما تأكل البقرة أو الضأن ورقة توت خضراء تنتج منها اللحم واللبن والصوف. وعندما تأكلها دودة القز الصغيرة تنتج منها الحرير. وإذا ما أكلها الغزال تخرج منها رائحة منها المسك، وينتج النحل العسل من حبوب لقاح الزهرة.

وكل هذه الأشياء فوق إدراك الإنسان الذي هو أكمل مخلوق في الكون. كما أن الأوراق الحائزة على

ألوان وروائح متعددة -والتي تخرج الزهور المتنوعة من تربة واحدة- هي أحوال وصور خارقة لن يستطيع أن يصنعها أي كيميائي مقتدر مهما بلغ شأنه وعلا قدره.

والحيوان الذي يستطيع صناعة اللحم واللبن من العشب بالنظام الإلهي الذي منحه الله تعالى له لن يستطيع الإنسان -الذي هو أكمل المخلوقات- أن يصنعه. فلو أحضر الإنسان الآف الأطنان من العشب والحشائش ووضعها في أفضل المعامل الكيميائية واستخدم أعلى التقنيات الحديثة لن يستطيع أن ينتج جراماً واحداً من اللحم أو اللبن.

يقول ربنا عز وجل:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ﴾ (النحل، ٦٦)

نحل العسل

قال الحق عز وجل في كتابه الكريم:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل، ٦٩)

وقال رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ الْقِطْعَةِ مِنْ الذَّهَبِ نَفَخَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فَلَمْ تَغَيَّرْ وَلَمْ تَنْقُصْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ أَكَلَتْ طَيِّبًا وَوَضَعَتْ طَيِّبًا وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَلَمْ تَفْسُدْ"

(أحمد، المسند، جـ٢، ١٩٩؛ الحاكم، ١، ١٤٧؛ البيهقي، الشعب، ٤، ٥٨)

يريد ﷺ نحلة العسل ووجه الشبه حذق النحل وفطنته وقلة أذاه وحقارته ومنفعته وقنوعه وسعيه في الليل وتنزهه عن الأقذار وطيب أكله وأنه لا يأكل من كسب غيره وطاعته لأميره وأن للنحل آفات تقطعه عن عمله منها الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تفقره عن عمله ظلمة الغفلة وغيم الشك وريح الفتنة ودخان الحرام ونار الهوى

وبينما ذكر رسول الله ﷺ أوصاف المؤمن هنا فإنه أشار في نفس الوقت إلى الجمال والحكم الموجودة في النحل.

يقول المفسر حسين الكاشفي: «إن من يفكر يعرف أن الله تعالى العليم بكل شيء القادر على كل أمر قد خلق

النحل -هذا الكائن الضعيف- وجعل فيه حكم كثيرة. فالنحل متواضع لا يحيد عن الطريق المستقيم، وهو يأكل الفواكه الحلوة والمرة ولكنه يعيدها عسلا لذيذاً حلواً.

وهو أيضاً صاحب تقوى وورع لا يأخذ منه الآخر سوى النقاء والطهارة. وهو كذلك الطائع التي لا يخرج أبداً عن أمر الله تعالى. وهو المحب لسكنه ووطنه المتمسك به دائماً، فهو يذهب إلى الأماكن التي تبعد مئات الفراسخ ثم يعود مرة أخرى إلى وطنه. وهو كذلك نظيفٌ طاهرٌ لا يقف على القاذورات ولا يأكلها. وهو صاحب فن ومهارة لو اجتمع فنانو ومهندسو الدنيا كلها ما استطاعوا أن يقوموا بالعمل الذي يعمله. أما العسل الذي ينتجه ففيه الشفاء للأمراض الظاهرية كما فيه الشفاء للجهالة التي هي مرض باطني».

معجزة الفطرة

لقد عبر إسماعيل فنّي ارطُغرل عن تسيير الحيوانات لحياتها وفق نظام إلهي يُسمّى «**الفطرة**» فقال:

«إن الحيوانات تعرف بالفطرة دون أي تعليم الأغذيةَ المفيدة لها، والأشياء اللازمة للحفاظ على حياتها واستمرار التناسل. فالطيور تبني الأعشاش الجميلة والطيور المهاجرة تتجمع في يوم معلوم استعدادًا للسفر.

وبعض الحشرات قبل أن تموت تقوم بتخدير وتعطيل بعض غدد الحشرات الأخرى دون أن تقتلها، وتضعها بجانبها مشلولة دون أن تستطيع الحراك ليتغذى عليها صغارها عندما يخرجون من البيض.لكن ما أعجب هذا التجلي لأن هذه الحشرات المشلولة المخدرة تكون هي الغذاء لصغار الحشرات حتى تكبر.

أما النحل فله القدرة والإستعداد على تحديد نوع المولود بجعله ذكراً أو أنثى وذلك عن طريق تغيير أغذية الشرنقة. والخلية عندما تُحرم من سيِّدَتها بسبب حادثة ما فإن النحل يستطيع أن يحول إحدى الشرنقات إلى ملكة لتحكم الخلية»[١٠]

فما أعظم تلك العبرة لمن اعتبر ذلك أن النحلة البرية تسيطر على الجرادة وتفتح لها حفرة في الأرض وتدفعها فيها، فلا تقتل الجرادة لكنها تجعلها في حالة إغماء حتى تكون الجرادة مثل اللحم المحفوظ.

ثم بعد ذلك عندما تضع بيضها في الزمان والمكان المناسبين، ويخرج الصغار تحضر لهم اللحم الطازج ليتغذوا عليه. وبعد ذلك تذهب تلك الأم وتطير بعيداً وتموت قبل أن ترى صغارها. وهكذا فإن هذه التقنيات

(١٠) أجوبة حول حقائق الإيمان، ص٥٨-٥٩.

والأسرار لا يمكن إيضاحها أو إرجاعها إلى كلمات مثل الإنطباع والتعليم المتوارث، بل أن هذا منحة إلهية لهم من قبل الحق ﷻ.

وسمك السلمون بعد أن ظل في البحر لمدة سنوات يعود إلى النهر إلى وطنه الأصلي حيث يصل إلى مكانه من النهر حيث ولد تماماً. فمن أعطاه الإحساس الذي يقوده إلى مكانه القديم بالضبط؟! ولو أخذنا هذه السمكة ووضعناها في نهر آخر يصب في نفس النهر فإنها في الحال ستعرف أنها تسير في الطريق الخطأ وترجع مرة أخرى وتعود إلى نهرها الأصلي الحقيقي فتسير عكس اتجاه التيار، وتأخذ طريقها مباشرة نحو النهر الذي ولدت فيه.

أما حل سر ثعبان السمك فهو أكثر صعوبة؛ فهذه المخلوقات تصيب الإنسان بالحيرة والدهشة ذلك أنه عندما يحين ميعاد وضع البيض تأتي من أنهار وبحيرات الدنيا كلها لتضع بيضها في الأعماق التي بجوار جزر برمودا في المحيط الاطلسي وتموت.

فالأسماك التي تعيش في أوربا تعبر آلاف الأميال في المحيط وتأتي إلى نفس المكان. وصغار السمك التي تخرج من البيض -والتي يظن البعض أنها لا تعرف شيئًا آخر سوى أنها تعيش داخل ماء لا حد له ولا قرار- يسلك

طريقه ويعود من حيث جاء، وفي النهاية يصلون إلى نفس الساحل الذي جاء منه آباؤهم وأمهاتهم. ولا يكتفون بهذا بل يذهبون إلى النهر أو البحيرة الصغيرة التي كان هؤلاء الأباء والأمهات يعيشون فيها.

وحتى الآن لم نصادف أي سمكة أمريكية من نوع ثعبان السمك تعيش في أوربا، أو أية سمكة أوربية من نوع ثعبان السمك تعيش في أمريكا. وسبحان الله تعالى فإنه قد زاد من عمر ثعبان السمك الأوربي وذلك بسبب طول المسافة.ولنا أن نسأل في عجب من علم هذه الأسماك كل هذه الأمور ورسم لها ذلك القدر المعلوم؟!.

والواقع أن الأحوال الخارقة للعادة التي تبدو في الحيوانات تُظهر بشكل واضح جلي أنها لم توجد مصادفة، ولا تتحرك خبط عشواء. بل على العكس تماماً فهذه الحيوانات كلها تتحرك وفق منظومة محددة رسمتها قدرة الخالق الذي خلقها. ومن الأدلة الواضحة أيضاً عن وجود ربنا ﷻ وقدرته وعظمته الإلهية هو توجيهها وفق شعور فطري عال.

وربنا ﷻ يعرض هذه الأدلة للبشر فيرى بعضُهم الحقيقة ويسلم للحق ﷻ، وبعضهم رغم تلك التجليات المعجزة التي تعرض أمام عينيه يصيبُه العمى، ويعناد

بإصرار أمام الحق والحقيقة وقد وصفت الآية الكريمة تلك الحال فقالت:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾ (البقرة، ٢٦)

خلق الكون أزواجاً

إن الله تعالى قد خلق المخلوقات كلها أزواجاً، وخص نفسه فقط بالوحدانية، فقال ﷻ في كتابه الكريم:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(الذاريات، ٤٩)

وقال أيضاً:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان،١٠)

وحقيقة زوجية المخلوقات التي أثبتها العلم الحديث منذ زمن قريب قد أخبرنا بها القرآن الكريم في آياته الكريمة منذ أربعة عشر قرنًا وقدمها كهدية علمية للإنسانية .

إن هذه الكائنات -التي تزينت وجُهزت باعتناء وإحساس يفوق الإدراك البشري- تتبع كلها من البشر والحيوانات والنباتات والذرات وحتى العناصر الخفية مثل الألكترون والبرتون التي في داخل الذرة -كل حسب شخصيته وحاله- ذلك القانون العجيب «**قانون الإزدواج**» وهذا الأمر يفتح لنا أفقاً واسعاً وعظيماً من التفكر.

التفكر في نعم الله ﷻ

إن أكبر نعمة أنعم الله تعالى بها علينا هي أنه صورنا في صورة بشر، وجاء بنا إلى الدنيا في بيئة مسلمة. أما النعمة التي هي أكبر من ذلك فهي أن جعلنا من أمة رسولنا الكريم ﷺ وخاطبنا في القرآن الكريم.

فرسول الله ﷺ كان بالنسبة لنا النموذج القرآني الكامل والفعلي الذي انعكس على السلوكيات والتصرفات. فهو قد علمنا الكتاب والحكمة وطهر وجداننا ونقى قلوبنا، فلو أدركنا قدر هذه النعم فقط حق قدرها لما رفعنا رؤسنا أبداً من سجود الشكر.

وعطاءات الله تعالى ليست محدودة بهذا فقط، بل نعمه كثيرة لا تعد ولا تحصى كأنها سيل هاطل يغمرنا نحن

عبيده. وفي ذلك يقول رَسُولَ اللَّهِ ﷺ :

"قَالَ اللَّهُ ﷻ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ ـ وَقَالَ ـ يَدُ اللَّهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ـ وَقَالَ ـ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ " (البخاري، التوحيد، ٢٢)

فحق النعمة هي أن تفكر في تلك النعمة، وتستدل بها على وجود الخالق، وتفكر في قدرته ﷻ وعطائه، وتشكره عليها.

يقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «الكلام بذكر الله ﷻ حسن والفكرة في نعم الله أفضل العبادة» (أبو نعيم، الحلية، جـ٥، ٣١٤)

أما كفران النعمة أي الجحود فهو إهمال شكر النعمة، واستهلاكها في شهوات الجسد والنفس الدنيئة واتلافها. وهذه الأحوال تبعد الشخص عن الحق ﷻ واهب النعم والإحسان.

والشكر ثلاثة أقسام:

١- شكر القلب: التفكير في النعمة.

٢- شكر اللسان: هو حمد النعمة والثناء عليها.

٣- شكر الأعضاء: أي مقابلة النعمة بما تستحق.

ومن ناحية أخرى فقد قيل: "شكر النعمة يكون من جنسها". أي أن الحق ﷻ لو أنعم علينا بنعمة معينة فيجب أن نفيض بها على المحرومين منها. وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ (القصص، ٧٧)

التفكر بكل الوسائل

يقول الشاعر التركي ضيا پاشا:

كل ورقة في الكون يُقرأ فيها آلاف دروس لمعرفة الله

يا رب ما أجمل تلك المدرسة مدرسة الكون

وفي صدد بيان وإيضاح تلك الحال كان سفيان بن عيينة أحد كبار علماء الإسلام يردد مراراً وتكراراً ذلك البيت من الشعر الذي يقول:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

ولهذا السبب كان العرب يقولون:

«كثيرة هي العبر وقليل جدّاً من يعتبرون»

كل ذرة تذكر الله ﷻ وتحكي عنه

إن الإنسان لو استطاع أن يقرأ كتاب الكون متأملاً متفكراً لأخبرته كل ذرة يراها بعظمة الحق ﷻ، وقربته من معرفة الله تعالى. وما أجمل قول الشاعر التركي فضولي البغدادي:

لو كانت للعارف قدرة أن تدرك الوحي

لكانت كل ذرة في الكون جبريل يوحي أمر الله إليه

ويقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (الحاقة، ٣٨ – ٤٠)

ولعل إحدى الحكم من القسم في القرآن الكريم هي لفت النظر إلى العبرة والفائدة والحكمة التي في المخلوقات التي يقسم الله تعالى بها. وهي أيضاً تريد أن تعمق مشاعر العبد عن طريق تلقينه والإشارة إلى تلك العظمة.

وعلى ذلك فإن المخلوقات كلها – التي يمكن رؤيتها والتي لا يمكن رؤيتها – هي آيات قدرة الله تعالى وربوبيته. وإذا ما فكر الإنسان فيها سيعتبر وسيجد حكمًا لا تحصى ولا تعد.

والواقع أن الأسرار والحكم والعبر التي يُتوصل إليها نتيجة تقوية التفكر والتدبر وتغذيته من روح القرآن الكريم ستصير عظيمة مثل بذرة شجرة الدلب الصغيرة التي تكتسب عظمة عندما تتحول إلى شجرة ضخمة عن طريق الأرض المنبتة.

يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(الجاثية، ٣ – ٥)

وتكثيف القلوب والعقول ووقفها عند هذه الأمثلة المتعقلة بالتفكر في القرآن الكريم سيحمل العبد إلى مناخ «**التقوى**». فكما أن الزهور تحتاج إلى الهواء والماء والتربة والضوء، فإن إكساب التفكر المسْتوى اللائق يكون مرتبطًا بالتقوى.

إن الحق ﷻ يريد من عباده أن يكونوا بشرًا أذكياء، أصحاب فطنة، مفكرين متدبرين. ولهذا السبب فإن أي مسلم عليه أن يتوجه إلى التفكر كأنه في عبادة بكل وسيلة

وداخل شعور وجداني. وهذه المقولة لرابعة زوجة أحمد بن أبي الحوارى تقدم مثالاً رائعاً لتلك الحال قائلةً:

«ما سمعت الآذان إلا ذكرت منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا رأيت تطاير الصحف، ولا رأيت جرادًا إلا ذكرت الحشر»

ويروى أن الخليفة هارون الرشيد دخل الحمام ذات يوم فصب عليه خادم الحمام الماء المغلي بطريق الخطأ. وعندما خرج هارون الرشيد من الحمام مسرعاً من شدة الألم وزع آلاف الصدقات ولما سُئل عن ذلك قال:

«لم أستطع أن أتحمل ماء الحمام فكيف سيكون حالي لو كنت من السائرين إلى جهنم يوم القيامة؟!».

وكان رسول الله ﷺ يتوجه إلى ربه بالحمد والشكر ويستخرج العبرة من كل شيء يراه. ونحن علينا أن نسعى بحماس وجد لأن نرى العظمة الإلهية في كل شيء، وأن نأخذ زاداً معنوياً لأحاسيسنا وأفكارنا ومشاعرنا. فالمسلم إذا نظر إلى القمر أو الشمس أو الغلاف الجوي، وإلى خلقه نفسه، وإلى أولاده وإلى أجداده، أو أينما نظر يجب عليه أن يقرأ بعين القلب الرسائل الإلهية التي أعطيت له عن طريق هؤلاء الذين ذكرناهم. ويجب عليه أن يفكر

كيف جاء ومن أين جاء؟ وكيف يستطيع أن يستمر في الحياة ؟ ومن أعطاه شكله وحجمه؟ ومن حدد له عمره؟ وإلى أين يذهب بعد الموت؟ وأن الحياة والكون يسيران بحكمة وأن لا شيء خلق عبثًا. ويجب عليه ألا يترك نفسه تسير على هواها بلا قيد ولا ضبط.

لماذا خلق الله تعالى هذا الكون؟

يقول الحق ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الدخان، ٣٨ – ٣٩)

لذا يجب على الإنسان الذي يفكر في الكون أن يتصرف على مراد الرب ﷻ وأن يدرك أن الله تعالى قد خلق كل شيء لغاية معينة، وأن يكون في خدمة عباد الله تعالى. وبعد ذلك يجب أن يفكر في مسئولياته تجاه الحق عز وجل وأن يسعى باهتمام ودأب لتأدية وظائف العبودية؛ لأن بقاء هذا الجحود والإنكار تجاه عطاءات الحق ﷻ وكرمه العظيم يعد غفلة مريرة لا تليق بشرف الإنسانية وعزتها.

ويجب على الإنسان ألا ينسى أنه سيحاسب على هذه النعم كلها التي أعطيت له، حيث يقول الحق ﷻ:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر، ٨)

والحاصل أن في عنقنا دين هو دين العبودية والشكر -الذي لا حد له- لربنا ﷻ على النعم الإلهية كلها التي نعيش فيها، والتي نلاحظها أو لا نلاحظها. ما أسعد القلوب العارفة التي تدرك هذه المسئولية، وتعيش في هذا الشعور، وتسعى بحماس في طريق الوفاء بهذه المسئولية.





التفكر في الإنسان

لو فكرنا برهة في أن الأرض التي ندوس عليها ونعبرها قد امتلأت بأجساد مليارات البشر الذين ماتوا وتحولوا إلى تراب. كأنها مليارات الظلال المتشابكة والمتداخلة .وأننا غداً سندفن مع أعمالنا في حضن ذلك التراب أيضاً وسوف نتلاشى داخل هذه الظلال الكثيفة. وبعد ذلك ستبدأ الرحلة إلى حياة أبدية وخلود لا ينتهي. وفي تلك الحال علينا أن نقف لحظة ونفكر في عظم الفائدة التي سيجنيها العقل إذا ما استبدل اللحظة الآتية بالخلود الدائم الذي لا ينقطع .

التفكر في الإنسان

الدقائق الخارقة للعادة في الخلق

يقول الحق ﷻ:

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات، ٢٠ – ٢١)

فربُنا ﷻ قد خلق الإنسان خلقاً عظيماً، ورغم تلك الإكتشافات التي لا حصر لها والتي تمت في ظل التقدم العلمي والتقني في عصرنا، إلا أنه لم يستطع الوصول إلى آخر الحكم والأسرار الخارقة للعادة في الإنسان.حيث تقول الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار، ٦ –٨)

وفي تلك الآيات يذّكر الحق ﷻ الإنسان بماضيه ويدعوه إلى التفكر في خلقه. وذلك أن الإنسان الذي جعله الله تعالى أكرم مخلوقاته وصوره في أحسن تقويم قد خُلق من ماء مهين[1].

(١) انظر: عبس، ١٧–٢٢؛ الروم، ٢٠؛ الإنسان، ٢١ ، القيامة ٣٦ – ٣٨؛ المرسلات، ٢٠ – ٢٢؛ يس ، ٧٧.

وفي تلك الحال فإن عصيان الإنسان -الذي ظهر إلى الوجود من نقطة صغيرة لا تكاد ترى - لربه صاحب العلم والحكمة والقدرة اللامحدودة اغتراراً بقوته ووجوده الفاني تكون هذه حال عبثية ساخرة غير معقولٍ إلى أقصى حد. والواقع أن صفحات خلق الإنسان التي يكتشفها الطب حديثاً قد صورها القرآن في آياته الكريمة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا من الزمان(٢) حين قال الحق ﷻ:

(٢) إن القرآن الكريم الذي نزل من ١٤٠٠ سنة تؤيده تلك الاكتشافات العلمية كل يوم. فذلك الكتاب الذي نزل على نبي أمي ﷺ ليبلغه للناس. ومع أن القرآن يتناول كثيرًا من القوانين الإلهية الجارية في الكون والآف الحوادث التي تعكس تلك القوانين، ومع عدم تكذيب أي من الاكتشافات الحديثة لحرف فيه فإن ذلك يعد واحدًا من الأدلة على صدق هذا الكتاب، وأن الله تعالى قد أوحى به لرسوله ﷺ. أي أن القرآن كان دائمًا يسبق العلم البشري وتأتي الاكتشافات كلها لتؤيده. وبعض المفكرين الغربيين الذين لم يقفوا موقفًا سلبيًا تجاه الإسلام قد سلكوا طريق الهداية عندما أصابتهم الدهشة والحيرة بعدما درسوا ما ورد في تلك الآيات التي نزلت قبل ١٤٠٠ عام مثل تلك الآيات التي تتحدث عن مراحل خلق الإنسان، والتي لم يُتوصل إلى الحقائق التي احتوتها إلا في زماننا الحاضر. ومن بين هؤلاء العالم الفرنسي موريس بوكاي المتخصص في عالم الأجنة الذي تشرف باعتناق الإسلام بسبب هذا التصوير القرآني البديع والخارق للعادة، والف كتابا اسمه: التوراة والأنجيل والقرآن والعلم، إذ أوصي قرائي الأعزاء قراءة هذا الكتاب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون،١٢ – ١٦)

والأعضاء أيضاً مثل خلق الإنسان تدعوه بلسان الحال إلى التفكر. أي أن عيوننا وآذاننا وأيدينا وأقدامنا وعقولنا وقلوبنا باختصار كل أعضاء جسمنا تصيح قائلة –كساحة تفكير واسعة أعطيت لنا–:

«انظر بنظرة اعتبار وتدبر كيف أن الحق ﷻ نظم الأعضاء التي تتشكل من اللحم والأعصاب والأوردة، وكيف جعلها توجد وفق نظام مدهش متوازن فيما بينها. وكيف جعل الرأس مستديرة وفتح فيها نوافذ مثل الأذن والعين والأنف والفم. وكيف أنه سبحانه خلق اليد والقدم طويلة، وكيف فصل نهايتها إلى أصابع والأصابع إلى أنامل. وكيف خلق الأعضاء الداخلية مثل القلب والمعدة والرئة والأمعاء والطحال على أفضل شكل وأنسب كيفية. وأن أي منها لا تعمل بشكل منفرد عن الأعضاء الأخرى، أو أن أحدها لا لزوم ولا فائدة لها. بل على العكس فإن

لكل واحد منها وظائف مهمة جدًّا وأنها خُلقت في أفضل شكل يناسب تلك الوظائف» .

ثم أن كل واحد من هذه الأعضاء مقسم هو نفسه إلى أقسام. فمثلاً توجد طبقات في العين ولكل طبقة منها شكل ووظيفة خاصة بها. ولو تعطل واحداً منها أو فقدت إحدى وظائفها لكُفَّتْ العينُ عن الرؤية.

العظام

إن تشكيل العظام يستحق الإعجاب ويدعو للدهشة: فكيف أن الله ﷻ قد خلق من نطفة ضعيفة مهينة رقيقة هذه العظام القوية الصلبة لهذه الدرجة؟ ثم كيف جعل العظام هيكلاً عظميّاً قوياً ومتماسكاً ومتوازناً لأقصى قدر في أشكال ومقادير مختلفة. فبعضها صغير وبعضها كبير، وبعضها طويل وبعضها مستدير، وبعضها منحني وبعضها ممتلئٌ، وبعضها عريض وبعضها رقيق. والإنسان ليس مركّبا من عظمة وحيدة، بل إن العظام ترتبط مع بعضها البعض بأربطة ومفاصل متحركة. وكل واحدة منها قد أعطيت شكلاً تُلائم الحركة التي سيقوم بها. وآلية تزييت هذه المفاصل هي آلية بديعة وخارقة للعادة إلى حد بعيد؛ لأنه لا يمكن توضيحها بشكل تام بأنواع التزييت الثلاثة المستعملة في التكنولوجيا إلى اليوم.

والآن يجب أن نفكر لحظة فيما لو صنعنا أحد المفاصل التي في جسمنا فكم من المشاكل والمصاعب التي يمكن أن نواجهها.

فلو أن الله تعالى قد خلق عظمة واحدة زائدة في جسمنا لكانت هذه العظمة سبباً لعدم الراحة ومنبعًا للألم. وعلى العكس من ذلك فلو كانت العظام ناقصة عظمة واحدة لوجب علينا أن نبذل أضخم الجهد وأقصاه من أجل تلافي هذا النقص. ولما استطَعْنا مهما طال الوقت أن نتلافى هذا النقص.

وعلينا أن نفكر فيما لو أننا لم نستطع أن نستعمل الأصابع الخمسة في أحد الأيدي في مدى التأخر والصعوبة التي سنتعرض لها كي ننجز أعمالنا. وهذه الحال هي أمر يجب حقيقةً أن نفكر فيه.

أيضاً بعض الأسنان تكون مستويةً وبهذا تكون ملائمةً للطحن والهرس. وبعضها الآخر حاد فيكون ملائماً للقطع والتمزيق. وأشكال العضلات وحجمها يتغير تبعاً لمكانها واحتياجاتها. وتوجد عضلات كثيرة في العين ولو مرضت واحدة منها لفسدت صحة العين كلها.

إن الخوارق للعادة وبدائع الصنعة هي التي نرى فيها جميعاً أيضاً الصفات التي لا يمكن إدراكها بأي

من الحواس الخمسة. أي الخصوصيات المعنوية مثل الشخصية والطبع والوجدان هي الأخرى عظيمة وجليلة القدر في ماهيتها.

كما أن الخوارق التي في جسم الإنسان هي صنعة الله تعالى وقدرته التي في قطرة الماء، فالإنسان عندما ينظر إلى رسم جميل يشعر بالحيرة أمام مهارة الرسام وذكائه ورقته. ويعظم هذا الفنان في عينه، مع أن الشيء الذي صنعه الرسام لم يوجد من العدم. فالأشياء التي استعملها الرسام لإتمام عمله كالورق والفرشاة والألوان كانت موجودة ولم يخلقها الفنان من العدم. وكانت اللوحة التي أبدعها الرسام هي عبارة عن انعكاس الانطباعات والتأثيرات التي أخذها الرسام من العالم الذي خلقه الله تعالى. ورغم ذلك فإننا نصاب بالدهشة والحيرة والإعجاب عندما نتمعن في عمل رسام ما.

وفي تلك الحال ألا يجب علينا أن نفكر بجوارحنا كلها ونتعجب أيما عجب من حادثة خلق الإنسان الذي هو بديعة فنية وإيجاد لا نظير له، خلقه الله تعالى الصانع المطلق والمبدع العظيم من نطفة إذا تُمْنى من قطرة ماء صغيرة؟!



الأعضاء

إن بنية الأذن، وفوائد الأنف، وحديث اللسان، وخروج كل حرف من مخرج منفصل عن الآخر، وتزيين الفم بالأسنان، وتصميم الأسنان المنتظم مثل حبات اللؤلؤ المنضودة، وخاصية تمييز صوت كل إنسان كمعرفة العميان الناس من أصواتهم. والشعرُ واللحيةُ، والحاجبُ والرمشُ، والمعدةُ والكبدُ والكليةُ والأوردةُ كل هذه الأشياء يجب أن نتأملها طويلاً ونفكر فيها ونتدبرها ملياً. فكل واحدة منها قد خُلق بعلم وحكمة وتدبير عال في أعلى درجات السمو، وهي تؤدي وظائفها في تناسب وتناغم مع بعضها البعض إلى أقصى حد.

فكُلْيتنا هي قطعة لحم صغيرة. ولكنها تفصل الأشياء السامة عن الأشياء غير السامة. فتطرد السام خارج الجسم، أما غير السام فتعيده مرة أخرى.

ويجب أن ننظر نظرة إلى يدنا كيف خُلقت طويلة لكي تتمكن أن نمدها إلى الشيء الذي نريده. وكيف أن راحة اليد قد قسمت إلى أصابع خمسة وكل أصبع إلى ثلاث عُقد. والخمسة أصابع أربعة منها في ناحية والأخير في ناحية أخرى. وهذا الأصبع الكبير يستطيع أن يهرع

لمساعدة باقي الأصابع كلها. ولو جاء كل البشر قديمهم وحاضرهم ومستقبلهم وسعوا لأن يعطوا شكلاً أجمل من هذا الشكل الذي عليه الأصابع لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

والإنسان لو فقد أحد الأظافر -الذي يبدو كعضو لا قيمة له- عندما يريد أن يحك مكاناً ما في الجسم فسوف يكون أعجز المخلوقات. ومن ناحية أخرى فإنه لو طلب المساعدة في هذا الأمر فإنه سيتمكن من حك المكان الذي يريد بعد تعريف طويل، وبعد عدة محاولات وتجارب.

وعلى ذلك فإن يد الإنسان نفسها تجد المكان المراد حكه بلا مساعدة ولا تجد صعوبة في الوصول إليه. حتى أنها تستطيع أن تجد ذلك المكان حتى في حال الإستغراق في النوم العميق.

فضلاً عن ذلك فإن أبسط الحركات التي نقوم بها بأصابعنا وأيدينا تتطلب حساباً هندسيّاً بالغ التعقيد والدقة في الحقيقة. فمثلاً لو فكرنا في مدى تخلف حركات الربوت(الرجل الألي) التي صُممت وصُنعت بأحدث الأساليب التقنية في عصرنا الحاضر مقارنة بحركة أعضاء الإنسان فلا يمكننا إلا أن نشعر بالدهشة والعجب لعلم الله تعالى وقدرته اللامحدودة التي يعرضها لنا في جسم الإنسان.

وما أجمل الشاعر (التركي شناسى) الذي عبر عن أن العين التي ترى والأذن التي تسمع فينا تعرض بلسان الحال، وتعلن في كل وقت أن الله تعالى هو الصانع المطلق فقال:

إن وجودي شاهد على وجود خالقي ﷻ

وكل برهان قوي غير هذا الشاهد هو زائد

شفقة الله تعالى ورحمته

انظر إلى رحمة الحق ﷻ وشفقته التي أخرت ظهور الأسنان عامين بعد الميلاد. لأن الطفل الرضيع لا يتغذى طوال هذاين العامين بالمعنى الحقيقي بشيء آخر سوى لبن الأم. ومن هذه الناحية فهو لا يحتاج إلى الأسنان؛ بل على العكس فإن وجود الأسنان في تلك الفترة سيكون سبباً لمعاناة الأم التي ترضعه.

وكلما كبر الطفل زادت حاجة جسمه للغذاء ولم يعد اللبن بمفرده يكفيه. وهذه المرة يشعر بالحاجة إلى الطعام الصلب ويلزم مضغ الطعام. وفي هذا الوقت بالضبط تبدأ الأسنان في التشكل ليس قبل ذلك الوقت ولا بعده. ولو ظهرت الأسنان قبل ذلك لمنعت رضاعة اللبن. والواقع أن إخراج الحق ﷻ تلك الأسنان الصلبة من لثة الأسنان

الرقيقة الطرية يعد من الأعمال المحيرة والمدهشة حقيقةً ثم أن الله تعالى قد أعطى للأب والأم شعوراً مميزاً ومختلفاً من الرحمة والشفقة لرعاية الطفل، فالله تعالى صاحب الحكمة في كل عمل لو لم ينعم بالرحمة والشفقة على قلب الأم والأب فمن يتحمل مضايقة الطفل ؟!

والواقع أن جسد الإنسان هو ساحة مدهشة للتفكير. يقول الإمام الغزالي في الإحياء: «فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهى فتجامع، وتغضب فتقاتل.

والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها هي معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس. إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين، ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير. إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله ﷻ له

القدرة ثم عطلها، وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً [3] (الغزالي، الإحياء، جـ٤، ص ٥٨ – ٦٢)

وجه الإنسان وأنامله

ذات يوم جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له:

«إني أتعجب من أمر الشطرنج، فإن رقعته ذراع في ذراع، ولو لعب الإنسان ألف ألف مرة، فإنه لا يتفق مرتان على وجه واحد فقال عمر بن الخطاب ههنا ما هو أعجب منه. وهو أن مقدار الوجه شبرٌ في شبر، ثم إن موضع الأعضاء التي فيها كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا يتغير البتة. ثم إنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يشتبهان. فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التي لا حد لها».

(الرازي، التفسير، جـ ٤، ١٧٩ – ١٨٠)

ويشير الشاعر نجيب فاضل إلى تلك الحكمة قائلاً :

من هو الرسام الماهر الذي رسم هذا الوجه؟

ألا يوجد رجل ينظر إلى المرآة ويسأل عن ذلك؟

(٣) أنظر: الغزالي، الإحياء، جـ٤، ص ٥٨ – ٦٢.

أما بصمة أصبع الإنسان فهي معجزة أكبر. واليوم تُستعمل بصمة الأصبع كشفرة لفتح أجهزة الحاسوب والأبواب؛ لأن كل إنسان لديه بصمة أصبع مختلفة حتى أن كل أصبع في اليد الواحدة لديه بصمة مختلفة.

وقد اُكتشف في نهاية القرن التاسع عشر أن لكل إنسان بصمة أصبع له شكل مختلف وخاص به، وقد شُرع في استعمال هذه الخاصية من أجل تحديد الهوية في القضاء والأمن. وفي يومنا الحاضر يوجد فرع علمي يهتم ببصمات الأصابع ويسمى «دكتيلولوجيDactylology»

والحق ﷻ الذي أنعم على الإنسان بهذه الخاصية يلفت النظر إلى هذه المعجزة الإلهية في آيات القرآن الكريم التي نزلت قبل ١٤٠٠ عاماً. وقد أخبرنا أنه سيعيد أنامل الأصابع إلى حالتها القديمة بعد أن يحيى جسد الإنسان مرة أخرى يوم القيامة فيقول في تلك الآيات الكريمة:

﴿أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه﴾ (القيامة، ٣ – ٤)

ومثلما نرى فإن القرآن الكريم يتقدم دائماً ويأتي العلم البشري بعد ذلك ليصدقه.

ومثلما تختلف بصمة الأصبع من فرد لآخر، فإن عيون الإنسان تختلف من شخص لآخر. والآن تستعمل بصمة العين كشفرة في التعرف على الأشخاص، وأصبحت تلك التقنية تُستخدم وتُطبق في الحياة اليومية. فما أعظم الخالق ﷻ الذي خلق هذه الإختلافات التي لا حصر لها في مساحة صغيرة لا تتجاوز واحد سم^{2}.

معجزة الجينات

إن الاكتشافات الجديدة في علم الجينات قد طرحت حقيقة «أن كل إنسان لديه شفرة جينية تختص به وحده وتميزه عن باقي البشر».

فضلاً عن ذلك فإن هذا الشيء الذي يسمى «**الجين**» هو صغير صغير إلى أقصى حد، حتى أننا لو جمعنا جينات المخلوقات كلها التي تعيش على الأرض فلن تستطيع أن تملأ علبة الخياط الذي يضع فيها الأبر والخيطان.

وهذه الجينات -التي لا ترى حتى بالميكروسكوبات- تستقر في خلية كل كائن حي وتعطي الخواص لكل إنسان ونبات وحيوان.

وقد تبدو علبة الخياط تلك صغيرة على أن تستوعب الصفات والخواص الفردية المتميزة لسائر البشر الذي

يتجاوز عددهم الستة مليارات نسمة، ولكن الحقائق العلمية في هذا الشأن لا تدع مجالاً للشك أو الريبة.

حسناً جدّاً فإن كان الأمر كذلك فكيف لهذا الشيء المسمى «**جيناً**» أن يخفي في داخله خصائص أحياء كثيرة يعجز العد عن حصرها؟! وكيف يمكن له المحافظة على هذه الخصائص والصفات كلها حتى النفسية منها لكل فرد على حدة في مكان صغير إلى حد لا يمكن تصديقه؟!

والكيفية التي يمكن أن تدار بها عدة ملايين من الذرات أمكن حسابها داخل جين صغير لا يمكن رؤيته حتى بالميكروسكوب، يمكن أن تتحقق فقط نتيجة علم وقد أشار ربنا عَزَّ وَجَلَّ إلى تلك الحقائق فقال:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف،١٧٢)

ولكن هذه وغيرها من مظاهر القدرة والعظمة الإلهية -التي اكتشفت في عصرنا الحاضر- قد أعجزت العقول والألباب. ولهذا السبب فإن الشاعر ضياء پاشا قد كتب بيتاً حكيماً من الشعر في القرن التاسع عشر يقول:

سبحان من تحيرت في صنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعْجِزُ الفحول

من الذي يُشغّل مصنع الجسم؟

يجب على الإنسان أن يرى أن الأحياء كلها، وكل شيء في السموات والأرض - وعلى رأسها هو - يحتاجُ دائماً إلى الله تعالى. وعليه أن يرى ذلك من أبسط شيء؛ فكل العمليات التي تتم داخل أجسامنا تتم وتدار تماماً بلا إرادة منا. فمثلاً نبضات القلب والتنفس، وسائر العمليات الحيوية الأخرى، والتفاعلات الداخلية للخلايا تتم هكذا فيما بينها دون إخبار أو مساعدة.

ومن المؤكد أنه لو ترك لنا ليوم واحد أن ندير ونتحكم في مئات العمليات الكميائية الحيوية في خلية نسيج واحد فقط، أو في الأعضاء التي تعمل بتوازن مدهش وفق نظام إلهي في جسم الإنسان، فربما لن نستطيع أن نتحمل حتى لعدة دقائق. ومن يعرف كم من الأعطال سنتسبب فيها؟.

فما أعظم العبرة التي نشاهدها من ناحية في تسخير الحق ﷻ فيلاً يزن عشرة أطنان لطفل صغير يبلغ العاشرة من العمر. أما من ناحية أخرى فإن الله تعالى يبين للإنسان عجزه فجعل فيروساً صغيراً لا يُرى بالعين المجردة يطرح الأجساد القوية الشديدة على الفراش!

ويمكن القول إن الإنسان يجب عليه ألا يعظِّم نفسه بالقدرة والقوة التي أعطاها الله تعالى له، وألا ينسى صاحب النعمة الحقيقي، وأن يظل دائماً بداخله أحاسيس الشكر، وأن يلتجأ دائماً إلى الله تعالى مستشعراً أنه لا يساوي ذرة غبار أمام القدرة الإلهية.

والحاصل أننا هنا لمسنا باختصار عدة مسائل من تجليات القدرة والحكمة الإلهية التي لا حد لها والتي تُعرض في الإنسان. وعندما نفكر في الإنسان فإنه سيتضح لنا أن الله تعالى قد وضع فيه كثيراً من الحكم والأسرار. أي لو كُتب كتاب لكل ذرة من ذرات الإنسان فلن يكفي.

لماذا خلق الإنسان

ما هي الوظيفة الحقيقية للإنسان في هذه الدنيا ذلك الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أجمل شكل وكرمه وجعله مظهراً لمنح وعطاءات إلهية لا حصر لها ؟ وما هو المأمول والمنتظر منه؟ وما هي مسئولياته؟

يقول الحق عز وجل:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون، ١١٥)



ويقول ﷻ:

﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾(الذاريات، ٥٦)

فالإنسان عليه أن يسجد آلاف المرات على كل خلية في جسمه. ويجب عليه أن يظهر هذا الشكر في صورة عبادة وصدقات، وتواصي بالحق وتواصي بالصبر، والقيام بأفضل الحسنات. لأنه يوجد مقابل لكل نعمة، وكل نعمة تتطلب الشكر.

يقول رسول الله ﷺ :

"كُلُّ سُلاَمَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْم، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ " (البخاري، الجهاد،٧٢)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

"يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلاَمَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى"

(مسلم، المسافرين، ٨٤)

وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

"تعدل بين الإثنين صدقة... وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة" (مسلم، الزكاة، ٥٦)

ويمكن القول أنه يجب عليك أن تسعى بجد وحماسة في هذه الدنيا لتكون عبداً جميلاً لله ﷻ. ويجب أن تعيش حياة مملوءة بالعبادة والطاعة والخير والحسنات وأن تستعد في أجمل شكل للآخرة.

أن تستطيع حل لغز الموت

يحكي محمد بن كعب القرظي فيقول:«لقيت عمر بن عبد العزيز بالمدينة في شبابه وجماله ونضارته قال: فلما استخلف قدمت عليه فاستأذنت عليه فأذن لي فجعلت أحد النظر إليه فقال لي: يا ابن كعب مالي أراك تحد النظر؟ قلت: يا أمير المؤمنين لما أرى من تغير لونك ونحول جسمك ونفار شعرك فقال: يا ابن كعب فكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري وقد انتزع النمل مقلتي وسالتا على خدي و ابتدر منخراي وفمي صديدا لكنت لي أشد إنكارا، دع ذاك أعد علي حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ" (الحاكم، ٤، ٣٠٠، رقم: ٧٧٠٦)

فالإنسان يجب عليه أن يفكر في آخرته أكثر من أي شيء: كيف ستكون خاتمته؟ ماذا سيقابل في حياة القبر؟ وفي أي مقام سيكون في الآخرة؟ وهذه هي أهم الغيبيات والمجاهيل لكل إنسان. أي على الإنسان أن يصرف جهده طوال عمره من أجل أن يستطيع أن يحيط بسر المغامرة التي بين القماط[٤] والتابوت، وبحكمة المجيء إلى هذه الدنيا، وحكمة العبور منها إلى الآخرة. وعلى الإنسان أن يسعى لحل هذا اللغز والوصول إلى الخلاص الأبدي.

فالإنسان عليه أن يفكر قبل أي شيء في فنائه؛ لأن ذلك الأمر هو الحقيقة القاطعة تقول الآية الكريمة:

﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ (الرحمن، ٢٦)

فذات يوم سيأتي يوم ليس له غد؛ ذلك اليوم هو يوم غامض مجهول بالنسبة لنا جميعاً ! يقول الحق ﷻ:

﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ**﴾ (ق، ١٩ - ٢٠)

إن كل فرد قد دخل إلى هذه الدنيا من باب معين أي من رحم الأم. ويعيش حياته في الدنيا التي هي مكان سباق ومنافسة عسير شديد مملوء بالأحاسيس والتصرفات الشهوانية والروحية. وبعد العبور من ذلك الممر ينتقل في النهاية إلى العالم الأبدي من باب القبر.

(٤) القماط: ثياب المولود الجديد أو اللّفة التي يلف فيه المولود المرجع د.آدم أقين

وهكذا فإن الدنيا منزل له بابان يدخل الناس من باب ويخرجون من الباب الآخر وذلك من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى يومنا الحاضر. حسناً فأين هم الآن؟ وأين سنكون نحن بعد مدة من الزمن؟ لا نعلم. ولكن المؤكد والمقطوع به هنا أن الموت سيحل بالظالمين والمظلومين، والعابدين والفاسقين. والآن فالكل ينتظر القيامة التي ستكون بداية الحياة الأبدية.

وهكذا فلو فكرنا برهة في أن الأرض التي ندوس عليها ونعبرها قد امتلأت بأجساد مليارات البشر الذين ماتوا وتحولوا إلى تراب. كأنها مليارات الظلال المتشابكة والمتداخلة وأننا غداً سندفن مع أعمالنا في حضن ذلك التراب أيضاً وسوف نتلاشى داخل هذه الظلال الكثيفة. وبعد ذلك ستبدأ الرحلة إلى حياة أبدية وخلود لا ينتهي. وفي تلك الحال علينا أن نقف لحظة ونفكر في عظم الفائدة التي سيجنيها العقل إذا ما استبدل اللحظة الآتية بالخلود الدائم الذي لا ينقطع.

إن ربنا عز وجل يخبرنا بأن الحياة الدنيا قصيرة للغاية قياساً بالحياة الأبدية فيقول في كتابه العزيز: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾ (النازعات، ٤٦)

وكيف نظر الشاعر (التركي عاشق پاشا) إلى مجمل الحياة الدنيا وأوضح هذه الحقيقة ولخص هذا الأمر فقال:

عمرنا قصير كطرفة عين

لم نشعر به حين جاء وحين انقضى كأنه طائر حلَّ وارتحل

وإذا كان العمر قصير كتلك الحال فهل يمكن أن نجد حماقة أكبر ممن يفني عمره في ما لا يفيد؟

التفكر في الموت

لقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نذكر الموت كثيراً فقال:

"أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ" (الترمذي، الزهد، ٤)

"يَا عَجَبُ، كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْحَيَوَانِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْغُرُورِ" (البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٨٤٣، رقم: ٩٣٥٠١)

فالإنسان عندما يفكر أن علاقته بالدنيا ستنقطع، وأنه سيبقى وحده مع عمله إن كان خيراً أو شرّاً. وأنه سيرى ما قدم من أعمال فإنه سوف يبتعد عن المعاصي والذنوب. ويرغب أكثر في الأعمال الصالحة، أي يجعل التفكير في الموت والإحساس به وسيلة للاستقامة في الحياة وتجميل الآخرة. لذلك نجد رسول الله ﷺ يقول في حديثه الشريف:

" أكثروا ذكر الموت، فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا. فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم" (السيوطي، الجامع الصغير، جـ١، ٤٧)

وفي نفس السياق فإن رسول الله ﷺ يحثنا على التفكير في الموت فيقول:

"قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ" (الترمذي، الجنائز، ٦٠)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ"

قالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . قَالَ:

"لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الاِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ" (الترمذي، القيامة، ٢٤)

وقال ﷺ:

"أكثروا ذكر الموت، فما من عبد أكثر ذكره إلا أحيى الله قلبه، وهون عليه الموت" (الهيثمي، الزوائد، جـ١٠، ٣٢٥)

"...فمن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله"

(الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٥٢٣)

وجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ قَالَ:

"أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً".

قَالَ فَأَىُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ قَالَ :

" أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا. أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ" (ابن ماجه، الزهد، ٣١)

تفكر الصحابة الكرام في الموت

خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه ذات يوم فقال:

"أَيْنَ الْوَضَاءَةُ الْحَسَنَةُ وُجُوهُهُمُ الْمُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِمْ، أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ بَنَوُا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحِيطَانِ، أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يُعْطُونَ الْغَلَبَةَ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ؟ قَدْ تَضَعْضَعَ أَرْكَانُهُمْ، حِينَ أُضْنِيَ بِهِمُ الدَّهْرُ، وَأَصْبَحُوا فِي ظُلُمَاتِ الْقُبُورِ الْوَحَا الْوَحَا، ثُمَّ النَّجَا النَّجَا" (البيهقي، شعب الإيمان، ٧، ٤٦٣، رقم: ١٠٥٩٥)

وتحكي السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول:

«ذكرت النار فبكيت فقال رسول الله ﷺ:

"ما لكِ يا عائشة"

قالت: ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ:

"أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحدا حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل. وعند الكتب حتى يقال: «هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ» حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه، أم في شماله، أو من وراء ظهره. وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتان كلاليب كثيرة وحسك كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا" (الحاكم، المستدرك، جـ٤، ص ٦٢٢، ٨٧٢٢)

وقال أسيد بن حضير رضي الله عنه: «لو أني أكون كما أكون محل حال من أحوال ثلاث لكنت من أهل الجنة وما شككت في ذلك: حين اقرأ القرآن وحين أسمعه، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدت جنازة. فما شهدت جنازة قط فحدثت نفسي سوى ما هو مفعول بها وما هي صائرة إليه» (أحمد، جـ٤، ص ٣٥١؛ الحاكم، المستدرك، جـ٣، ص ٣٢٦، ٥٢٦٠)

فوائد التفكر في الموت

يقول الحديث الشريف:

"كفى بالموت واعظاً" (الهيثمي، مجموع الزوائد، ١٠، ٣٠٨)

أي أن الموت به دروس وعبر كثيرة للغاية لمن يفكر ويعتبر. وأس الأمراض المعنوية هو حب عوارض الدنيا الزائلة كالمال، والمكانة والمنصب، واللذات الشهوانية وارتباط القلب بهذه الأشياء. وحب الدنيا يؤدي بالإنسان إلى الحسد والكبر والرياء والطمع. ولعل التفكر في الموت والقبر وأحوال الآخرة هو أحد أنجع الأدوية للوقاية من هذه الأخلاق السيئة والأمراض المعنوية.

والغاية الأساسية للتصوف هي حماية الإنسان من الكبر الذي يصيب النفس وإخراج حب الدنيا من القلب. ولهذا السبب أصبح التفكر في الموت أصلاً وأساساً يُحرص عليه بجدٍّ في كثير من الطرق الصوفية لتحقيق هذا الغرض والقصد. فكانت أوراد المريد اليومية تشتمل على التفكر في الموت لخمس أو عشر دقائق.

وفي عهد الدولة العثمانية كانت المقابر تقام داخل المدن على جانبي الطرق وفي ساحات المساجد، وذلك من أجل تسهيل التفكير في الموت وتذكره.

فتذكر الموت مراراً، وتحييد الرغبات الشهوانية، والإستعداد للآخرة يحفظ الفرد ويحميه من الندم الذي يحرق القلب عند النفس الأخير. وقد أخبرنا الحق ﷻ عن الندم العميق الذي يشعر به الإنسان عند الإنتباه وعندما يَصْحو من غفلة الدنيا لحظة الموت فقال:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون، ١٠)

وهكذا يجب علينا التيقظ والإنتباه في كل وقت والإستعداد بكل جد للحياة الآخرة التي هي الحياة الخالدة الأبدية حتى لا نعيش هذا الندم المرير وتلك الحسرة المفجعة.

وقد رأى الحسن البصري شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن:

«يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة، فقال الشيخ اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أي موعظة؟ ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادي» (الزهد للحسن البصري، ص٢٠)

ورُوي عن الحسن البصري أيضاً أنه قال:

«يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهم قط: ليلة تبيت مع أهل القبور، ولم تبت ليلة قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة. ويوم يأتيك البشير من الله تعالى؛ إما بالجنة أو النار. ويوم تُعطى كتابك بيمينك وإما بشمالك» (أبو الفرج بن عبد الرحمن، أهوال القبور، ص ١٥٤)

إن الموت أعظم بلاء وأشد امتحان للإنسان. ولكن الأسوء من ذلك والأعظم بلاءً أن تعيش دون ذكر الموت، وأن تبتعد عن التفكير فيه، وأن لا تستطيع أن تقوم بالأعمال التي ترضي الله تعالى وتليق به. أما الإنسان العاقل فهو الذي يستعد للموت قبل أن يموت ويطهر نفسه من الأخلاق والرذائل القبيحة السيئة.

يقول الشيخ سعدي شيرازي:

«يا أخي ستصير ترابًا في النهاية ! فكن متواضعًا مثل التراب قبل أن تصير ترابًا !»

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

«حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ. وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا» (الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩)

وعندما يُدفن جسدنا الفاني في القبر يَبْقَى أولادنا وأموالنا على الأرض فيرجعون. ونحن سُندفن في باطن الأرض مع أعمالنا فقط. وفيها تصير أجسامنا مع أكفاننا ترابًا، وما يَبْقَى معنا فقط هو عملنا الصالح.

يقول الإمام الغزالي: (لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب أعني طهارته من أدناس الدنيا يقول تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (الشمس، ٩)

وأنسه بذكر الله يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

وحبه لله عَزَّ وَجَلَّ يقول تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١)

وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت) (أنظر: إحياء علوم الدين، ٣، ٣٨٧)

ولو أن إنساناً يعد العدة اللازمة للقبر فعليه أن يبدأ بتجميل الموت. وهذا الشخص فقط هو الذي لا يخشى الموت، ولا يخاف منه. فكما يقول بشر بن الحارث رضي الله عنه:

"نِعْمَ المنزل القبر لمن أطاع الله" (أبو الفرج عبد الرحمن، أهوال القبور، ص ١٥٥)

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الذي يقول: "بني! إن موت كل شخص بحسب ما يحب، وباللون الذي يريد. فالموت يبدو كعدو رهيب لمن يعادون الموت وينفرون منه ويكرهونه دون أن يفكروا في أنه هو الوسيلة التي توصل الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى. والموت يبدو أيضًا كصديق أمام من يصادقون ويحبون الموت".

"أيها الحبيب الذي يخاف الموت ويخشاه! لو أردت القول الفصل وحقيقة الأمر فأنت لاتخشى الموت في الحقيقة؛ بل تخاف من نفسك أنت".

"لأن الذي تراه وتخاف منه في مرآة الموت ليس هو وجه الموت،بل هو وجهك أنت القبيح. فروحك تشبه شجرة. أما الموت فهو ورقة في تلك الشجرة. وكل ورقة تبدو من جنس الشجرة"

والحاصل أن موتنا وحياتنا في القبر التي ستستمر حتى يوم القيامة تتشكل تبعًا لأعمالنا وحالنا في الدنيا.

ومن أجل ذلك فإن الله تعالى قد أوضح لنا في آيات كثيرة جدّاً أحوال الدنيا والآخرة. ويريد منا أن نفكر أن الدنيا مصيرها الزوال، وأنها ذات يوم ستفنى وتنتهي، وأنه يجب علينا أن نبتعد عن الإنخداع والإغترار بالدنيا. ويأمرنا بأن نفكر أن الآخرة تدنو منا يومًا بعد يوم وأن الآخرة هي الباقية وعلينا أن نرغب فيها ونميل إليها.

ولهذا السبب فعلى العبد قبل أن يموت أن يتخلى عن الذنوب كلها بالتوبة النصوح، وأن يتلافى النقص في طاعته لأوامر الله تعالى والإمتناع عن نواهيه. مرة أخرى يجب إعادة الحقوق لأصحابها المظلومين حقّاً حقاً. أي يجب طلب السماح والغفران من الأشخاص الذين شتمناهم وافترينا عليهم واغتبناهم باللسان، أو ضربناهم باليدان، أو أَسَأْنا فيهم الظن بالجَنان. ويجب علينا أن نتطهر من هذه الحقوق والديون التي علينا قبل الموت.

والإنسان الغافل يمكن أن يفرح في الدنيا عندما يأكل حقوق الآخرين، ويمكن أن يعتقد أن السعادة في هذا الإنحطاط، ولكن غداً عندما تنصب موازين العدل سيشعر بالندم ويعض على أنامله عندما يقال له:

"أنت حقير، أنت عاجز، أنت فقير مفلس. فضلاً عن ذلك فلن تستطيع أن تعيد أيّاً من الحقوق هنا. ولن يقبل اعتذارك لأي أحدٍ هنا".

فذلك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عندما حان أجله رأى غسَّالاً يلوي ثوباً بيده قال:

"ليتني كنت غسّالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم ولم ألِ من أمر الدنيا شيئا" (الإمام الغزالي، الإحياء، ٤، ٤١١)

ومع التفكير الدائم في الموت والإستعداد له يجب علينا ألا نقنط من رحمة الله تعالى في أي وقت.

فقد روى عن عقبة البزار أنه قال:

«رأى أعرابي جنازة فأقبل يقول هنيئاً يا صاحبها.

فقلت علام تهنئه؟!

قال: كيف لا أهنئ من يُذهب به إلى حبس جواد كريم، نزله عظيم، عفوه جسيم،

قال: كأني لم أسمع القول إلا تلك الساعة» (أبو الفرج، أهوال القبور، ص ١٥٥)





التفكر في القرآن

إن القرآن الكريم هو باب عظيم مهيب مفتوح للمؤمنين أهل الوجدان والقلوب للتعمق في دنيا التفكر، وهو أفق فكري واسع، وهو لسان الأرض والسماء، وهو خزينة فيض وعرفان لا تنفد بياناته الحكيمة التي هي غذاء للروح، وهو معجزة بيان وُهِبَ للإنسان؛ وآلاف الكتب التي ألفت فيِ التراث الإسلامي هذا ما يزيد عن ١٤٠٠ عام قد ذابت فيه، وذلك من أجل أن تستطيع أن تفهم هذا الكتاب، وتتعمق فيه وتعرف الإنسان عن كثب.

التفكر في القرآن

إن الإنسان يميل دائمًا إلى التفكر. ولكن الإنسان يحتاج إلى مرشد يخلص عقله من أغلال الشهوة الضيقة ويوجهه إلى الحق والخير. وأوثق مرشد وأعظمه هو القرآن الكريم؛ كتاب الله العليم والتفسير العملي له وهو رسول الله ﷺ.

إن القرآن الكريم هو باب عظيم مهيب مفتوح للمؤمنين أهل الوجدان والقلوب للتعمق في دنيا التفكر. وهو أفق فكري واسع. وهو لسان الأرض والسماء. وهو خزينة فيض وعرفان لا تنفد بياناته الحكيمة التي هي غذاء للروح. وهو معجزة بيان وهبت للإنسان.

والقرآن الكريم هو شرح للإنسان والكون. فالكون والإنسان والقرآن هي عوالم ثلاثة ترتبط فيما بينها، ويشرح بعضها بعضاً في أجمل شكل. ومن يتعمق في القرآن يقرأ نفسه وألطاف ربه تعالى، ويبدأ في ترجمة صفحات الحكمة في الكون، وتتبدى له كثير من الأسرار الإلهية، وتنفتح من قلبه نوافذ على الآخرين.



والقرآن هو علاج أحاسيس ومشاعر الشهوة والأنانية التي تقود الإنسان إلى الهلاك معنويّاً. كما أنه وسيلة للتخلص من الخسة والسَّفه وعدم الشرف الذي ينحط بالإنسان إلى مرتبة دون الحيوانات. وفي القرآن أيضاً التدابير الواجب اتخاذها لكي لا تتحول أحاسيس العدالة إلى الظلم. والحاصل وخلاصة القول أن أكبر وصفة للسعادة التي يحتاجها الإنسان في حياته وأحواله كلها توجد فقط في القرآن الكريم.

الله تعالى يعلمنا القرآن

إن أكبر هدية أنعم الله تعالى على البشرية من فضله ورحمته هي القرآن الكريم، فالآيات الكريمة تقول:

﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

(الرحمن، ١ – ٤)

والحق ﷻ قد علم الإنسان القرآن كتجلٍ عظيم للرحمة الإلهية، وبهذه الوسيلة منحه وأعطاه أسراراً وحكماً كثيرة. وفي تلك الحال فإن الإنسان عليه أن يتعلم القرآن وأن يستكشف عالمه الداخلي أولا في إطار تلك التعاليم الإلهية. ثم بعد ذلك عليه أن يسعى مجتهداً ليكون

في كل أحواله وحركاته قرآنا حيًّا يمشي على الأرض، وعليه بعد ذلك أيضاً أن يسعى بتبليغه للإنسانية كلها بلسان فصيح بليغ.

الكتب كلها من أجل كتاب واحد

إن آلاف الكتب التي ألفت في التراث الإسلامي هذا ما يزيد عن ١٤٠٠ عام قد ذابت فيه، وذلك من أجل أن تستطيع أن تفهم هذا الكتاب، وتتعمق فيه، وتعرف الإنسان عن كثب. تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان، ٢٧)

أي أن القرآن به سر العلوم والحكم كلها، وفيه مفتاح سعادة الدارين جميعها؛ والقرآن الكريم يسبق دائماً وتأتي العلوم البشرية تابعة له. وكل اكتشاف علمي يتم تفسيرهُ ويصدق حقائق القرآن الكريم فيقول الحق ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت، ٥٣)

وكلما استمرت البحوث والدراسات حول القرآن كلما ظهرت معجزات جديدة. وصدق رسول الله ﷺ إذا يقول: "**كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا {إنا سمعنا قرآنا عجبا} {يهدي إلى الرشد} من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مسقيم**" (الترمذي، فضائل القرآن، ٤١)

يَجِبُ قراءة القرآن بتفكر وتدبر

لقد قال علماء الإسلام إن الغرض من قراءة القرآن هو التفكر في معانيه وحكمه والعمل بمقتضاه.

وليس هناك شيء أكثر فائدة من قراءة القرآن الكريم لزيادة قوة التفكر والتدبر لدى الإنسان؛ لأن القرآن الكريم هو كلام الله الذي يعرف أحوال الإنسان كلها. أي أن

القرآن الكريم يضع الإنسان أمام مرآة الحقيقة، ويجعله يرى نفسه في أصدق شكل وأوثقه. ولهذا السبب فإن كل مؤمن يجب عليه أن يتلو القرآن كثيراً، ويجب عليه التفكر والتدبر في مراد الله تعالى في تلك الآيات التي يقرأها.

وعلى هذا فإن قراءة آية واحدة بتدبر وتفكر تكون أفضل من ختمة تُقرأ بغير تفكر وتدبر؛ لأنه توجد أسرار لا تعد ولا تحصى في كل آية من القرآن الكريم. ولكن من يفكر كثيراً، وله قلب رقيق صاف يتحلى بالأخلاق العالية والأعمال الصالحة هو وحده فقط من يستطع أن يتطلع على هذه الأسرار.

يقول الحق ﷻ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور، ١)

ويقول أيضاً ﷻ:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (ص، ٢٩)

ويقول عز من قائل:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد، ٢٤)

وذات يوم سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَحْسَنُ صَوْتاً لِلْقُرْآنِ وَأَحْسَنُ قِرَاءَةً؟ قَال:

"مَنْ إِذَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ أُرِيتَ أَنَّهُ يَخْشَى اللَّهَ" (سنن الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤)

وقراءة القرآن تأتي على رأس الأعمال التي تجلب وساوس الشيطان. وذلك لأن المسلم عندما يقرأ القرآن ويفكر في وعيد القرآن وتهديده، ويفكر في آياته الواضحة البينة يتوجه بشوق أكبر إلى الأعمال الصالحة. وقراءة القرآن على هذا النحو تكون دافعاً لكي تكون الأعمال الصالحة أكثر إخلاصاً وإحساناً، لذا فإن الشيطان يعمل بكل جهده ليصرف الناس عن القرآن. ولهذا السبب أُمر الناس بالاستعاذة قبل تلاوة القرآن الكريم لقوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل، ٩٨)

كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن؟

عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ فَمَضَى. فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَتَيْنِ فَمَضَى. فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى. فَافْتَتَحَ

النِّسَاءَ فقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ ،وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَقَالَ:

"سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ"

فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ قِيَامِهِ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:

"سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ"

فَكَانَ قِيَامُهُ قَرِيباً مِنْ رُكُوعِهِ. ثُمَّ سَجَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ:

"سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى"

فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيباً مِنْ رُكُوعِهِ. (مسلم، صلاة المسافرين، ٢٠٣؛ النسائي، قيام الليل، ٢٥/ ١٦٦٢)

وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يقرأ آية ويظل يكررها متفكراً متضرعاً حتى يطلع عليه الفجر، فعن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ بِآيَةٍ وَالآيَةُ:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (النسائي، الإفتتاح، ٧٩)

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: **﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**

وقول عيسى عليه السلام: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

فرفع يديه وقال: "**اللهم! أمتي أمتي**"

وبكى. فقال الله عز وجل: يا جبريل! اذهب إلى محمد، وربُك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله. فأخبره رسول الله ﷺ بما قال. وهو أعلم. فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك. (مسلم، الإيمان، ٣٤٦)

وهكذا كان رسول الله ﷺ رحيماً عطوفاً بأمته ولو تمعنا وتفكرنا في هذا الحديث الشريف وجب علينا أن نثمن هذه المحبة ونقدرها ونرعاها إلى أقصى حد، وأن نعيش بسنته المطهرة كدليل على محبتنا هذه له.

يحكي ابن مسعود فيقول: قَالَ لِي النَّبِيّ ُ ﷺ:

"**اقْرَأْ عَلَيَّ**"

قُلْتُ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزل قَالَ:

"**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**"

فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾

قَالَ: "**أَمْسِكْ**" فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. (البخاري، التفسير، ٤/ ٩)

عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة ﵂ فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زر غبا تزدد حبا قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال:

"يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي"

قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال:يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال:

"أفلا أكون عبدا شكورا لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (ابن حبان، الصحيح، ٢، ٣٨٦؛ الألوسي، روح المعاني، ٤، ١٥٧)

لقد بكى رسول الله ﷺ في تلك الليلة التي نزلت فيها تلك الآيات وتساقطت دموع عينيه حتى الصباح مثل حبات اللؤلؤ التي تلمع كالنجوم. وأيضاً فَإنَّ دموع المؤمنين التي تنهمر عندما يفكرون في تجليات القدرة والعظمة الإلهية ستكون - بلطف الله ورحمته - زينة الليالي الفانية، وضياء ظلمات القبر، وندى أشجار الجنة إن شاء الله تعالى.

وقد قال رسول الله ﷺ في معرض حديثه عن فضائل القرآن الكريم ووجوب قراءته والتفكر فيه وتدبر أسراره ومعانيه:

"ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده" (مسلم، الذكر، ٣٨؛ أبو داود، الوتر، ١٤/ ١٤٥٥)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو، أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّه في كَمْ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَالَ:**"فِي شَهْرٍ"** . قَالَ إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ - يُرَدِّدُ الْكَلاَمَ أَبُو مُوسَى - وَتَنَاقَصَهُ حَتَّى قَالَ: **"اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ"** قَالَ إِنِّي أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ . قَالَ **"لاَ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ"** . (أبو داود الوتر، ٨/ ١٣٩٠؛ الترمذي، القراءات، ١١ / ٢٩٤٩)



وقال رسول الله ﷺ:

"رب حامل فقه غير فقيه ومن لم ينفعه علمه ضره جهله اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه"

(الهيثمي، ١، ٤٨١)

تلاوة الصحابة الكرام رضي الله عنهم للقرآن الكريم

كان الصحابة الكرام يكثرون التفكر من أجل فهم القرآن الكريم. وكانوا يقرؤن الآيات الكريمة بتعمق شديد ليطبقوها في حياتهم.

وخير مثال على ذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما قال:

(تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً) (القرطبي، ١، ٤٠)

وهذا مالك أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا (الموطأ، القرآن، ١١)

وكان ذلك الأمر يرجع إلى أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يشرعوا في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل فتعلموا العلم والعمل معاً (الكتاني، التراتيب، جـ ٢، ص ١٩١)

وذات يوم أَتَى رجلُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَقَالَ لَهُ:

«كَيْفَ تَرَى فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي سَبْعٍ، فَقَالَ زَيْدٌ: حَسَنٌ، وَلأَنْ أَقْرَأَهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ أَوْ عَشْرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَسَلْنِي لِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ. قَالَ زَيْدٌ: لِكَيْ أَتَدَبَّرَهُ وَأَقِفَ عَلَيْهِ». (الإمام مالك: الموطأ، القرآن، ٤)

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيضاً:

«من أراد العلم فليثور[1] القرآن فان فيه علم الأولين والآخرين» (الهيثمي، ٧، ١٦٥؛ البيهقي، شعب الإيمان، جـ٢، ٣٣١)

أخرج سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أن رسول الله ﷺ قرأ في مجلس ومعهم أعرابي جالس ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَهُ**﴾ فقال الأعرابي:

يا رسول الله أمثقال ذرة؟

قال: "**نعم**"

فقال الأعرابي: واسوأتاه

ثم قام وهو يقولها فقال رسول الله ﷺ:

"**لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان**" (السيوطي، الدر المنثور، جـ٨، ٥٩٥)

(١) أي يتفكر في معانيه وتفسيره وقراءته.

تلاوة أولياء الله الصالحين للقرآن الكريم

قال الفضيل بن عياض -قدس سره-:

" إنما نزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا. فقيل كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه" (الخطيب البغدادي، إقتضاء العلم العمل، ص٧٦)

وتحدث الإمام الشافعي رحمه الله تعالى عن وجود معان كثيرة للغاية في كل آية من آيات القرآن فقال :

"لو تدبر الناس في سور العصر لَوَسَعتهم" (ابن كثير، العصر)

وروى الأصمعي - العالم المسلم الكبير - تلك الحادثة التي تدور حول التفكر في القرآن الكريم فقال:

دخل رجل على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فقال له الخليفة: عظني يا أعرابى. فقال:

كفى بالقرآن واعظاً. أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوَهُمْ أَو وَزَنُوَهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ثم قال: يا أمير المؤمنين هذا جزاء من يطفف في الكيل والميزان فما ظنك بمن أخذه كله. (محمد صفوت، جمهرة خطب العرب، جـ ٣ ، ٢٤٣)

وقال محمد خادمي أحد العلماء العثمانيين المشاهير:

«إن الطريق الوحيد للخلاص من كل أنواع البلايا والمصائب والأزمات هو التمسك بالقرآن، وتطبيقه في الحياة. فداوموا على العبادة والطاعة وأفضل العبادات والطاعات قراءة القرآن الكريم بتدبر وأدب وحسن ترتيل. ذلك لأن قراءة القرآن على هذا النحو تشبه التحدث مع الله تعالى» (انظر: الخادمي، مجموعة الرسائل، ص ١٢ ، ١٩٤، ٢٠٠)

أمثلة على التفكر من القرآن الكريم

التفكر في علم الله تعالى

إن الحق ﷻ في كثير من آيات القرآن الكريم يدعو الناس إلى التفكر في عالم الله تعالى اللامحدود، يقول ﷻ في هذه الآيات الكريمة:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

(الأنعام، ٥٩)

«أي أن كل مؤمن عندما يقرأ هذه الآيات الكريمة يجب عليه أن يقف عندها قليلاً ويتدبر فيها. ذلك إن كل مؤمن يوقن أن الله تعالى عنده مفاتح الغيب أي خزائن الغيب، أي أنه تعالى عالِمٌ بالكليات والجزئيات مستأثر بعلمه، وما نعلمه نحن لا يمكن أبداً أن يصل إلى علمه؛ فالله تعالى يعلم ما في البَرْ من نبات ودواب وأحجار وأمدار وغير ذلك، وما في البحر من حيوان وجواهر وغير ذلك، كما أن علمه تعالى محيط بنا وبما أعد لمصالحنا ويعلم عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال، والورقة التي تسقط يعلم متى تسقط، وأين تسقط وكم تدور في الهواء. و يعلمها كيف انقلبت ظهراً لبطن إلى أن وقعت على الأرض. ويعلم ما لم يكن هل يكون أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون؟ وما لا يكون إن كان كيف يكون؟ أي أنه ﷻ هو العليم بكل شيء وكل علم بني آدم لا يساوي ذرة في علم الله. فالله وحده هو من عنده مفاتح الغيب تلك ولا يطلع عليها غيره سبحانه تعالى»[2]

أما الأستاذ سيد قطب فقد تحدث عن علم الله تعالى مفسراً نفس تلك الآية الكريمة فقال: «إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول،

(١) انظر: أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تفسيرسورة الأنعام آية ٥٩

وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود.. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد. وهو يرتاد -أو يحاول أن يرتاد- أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل؛ البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله؛ لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله. ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد، وعين الله على كل ورقة تسقط. هنا وهنا وهناك. ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله. ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط. إنها جولة تُديرُ الرؤوس، وتذهل العقول. جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يَعْيَى بتصور آمادها الخيال.. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات. ألا إنه الإعجاز!» (سيد قطب، الظلال، جـ٢، ١١١١-١١١٣، الأنعام، ٥٩)

وهكذا فإن الإنسان كلما تفكر بهذا الشكل في القرآن الكريم والكون فإنه يدرك كل نبذة كل إشارة إلى علم

الحق ﷻ وقدرته مهما صغرت. أما البعيدين عن التفكر فهم يتخبطون في حياة شهوانية دنيئة محرومين من الأسرار والحكم الإلهية.

يقول سعدي الشيرازي:

«كل ورقة خضراء في نظر أصحاب العقول ديوان لمعرفة الله تعالى. أما الغافلون فالأشجار كلها عندهم لا تساوي ورقة واحدة»

يقول الحق ﷻ في آية أخرى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ﴾ (سبأ، ٢)

والإنسان عندما يقرأ هذه الآية المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء، والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات، لا يصمد لها الخيال!

ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين!

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض؟ وكم من شيء في هذا اللحظة يخرج منها؟ وكم

من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها؟

كم من شيء يلج في الأرض؟ كم من حبة تختبىء أو تخبأ في جنبات هذه الأرض؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز، ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة؟ وكم وكم مما يلج في الأرض وعين الله عليها ساهرة لا تنام؟ وكم يخرج منها؟ كم من نبتة تنبثق؟

يقول الله ﷻ:

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ (الشعراء، ٧)

﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾

(عبس، ٢٤-٣٢؛ أنظر ايضاً: ق، ٧-١١)

وكم من نبع يفور؟ وكم من بركان يتفجر؟ وكم من غاز يتصاعد؟ وكم من مستور ينكشف؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى،

ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير؟ وكم مما ينزل من السماء؟ كم من نقطة مطر؟ وكم من شهاب ثاقب؟ وكم من شعاع محرق؟ وكم من شعاع منير؟

وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر؟ . . وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله .

وكم مما يعرج فيها؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستترة ومستورة لم يسمعها إلا الله في علاه؟.

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله؟.

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟!

كم في لحظة واحدة؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤه لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء؟ وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط

بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان . . وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وما له من حركات وسكنات تحت عين الله، وهو مع هذا يستر ويغفر . . وهو الرحيم الغفور. (سيد قطب، الظلال، جـ ٥، ٢٨٩١-٢٨٩٢)

سورة الواقعة

إن كل سورة وكل آية في القرآن الكريم يجب أن تُفَكِر فيها ونتدبرها بعمق شديد. ولكننا هنا على سبيل المثال سنقف فقط عند بعض الآيات التي وردت في سورة الواقعة والنحل والروم.

إن الله تعالى يبدأ سورة الواقعة بتذكيرنا بعظمة يوم القيامة ورهبته. ويخبرنا سبحانه أنه في ذلك اليوم يعز أقواماً ويذل آخرين. ويبين الله تعالى أن الناس بعد الحساب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

ثم يصور الحق ﷻ مقدار الجمال والكرم الذي لا مثيل له والذي سيناله عباد الله المقربون والصالحون الذين أعطوا صحائف أعمالهم بيمينهم.

ويصور الحق ﷻ عاقبة وتعاسة من أخذوا كتابهم بشمالهم ومقدار العذاب الذي ينتظرهم. ويحذر الله تعالى عباده من الذنوب بهذه اللوحة التي تقشعر منها الجلود والأبدان.

وبعد ذلك ينبه عباده بدعوتهم إلى التفكر حتى لا يسقطوا في تلك الحال المؤلمة الحزينة فيقول:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ، أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ (الواقعة، ٥٧-٥٩)

فما أعظم الصنعة الإلهية التي خلقت هذا الإنسان من ماء مهين وجعلته مزيناً بطل هذه النظم والأنظمة التي تعمل بشكل دقيق متوازن ومتداخل إلى أقصى درجة.

الموت والبعث

يقول المولى ﷻ:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة، ٦٠-٦١)

حقيقة الموت وما أعظمها من حقيقة. لا أحد يستطيع أن يفر من الموت. ولو أراد الحق ﷻ لأهلك المنكرين، وخلق مجتمعاً أكثر طيبة وإيماناً. يقول الحق ﷻ:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (الواقعة، ٦٢)

إن الله تعالى الذي أبدع الخلق الأول، وجعله في أفضل شكل وأكمله؛ قادر سبحانه وتعالى على أن يعيد الإنسان مرة أخرى. وعلى هذا فيجب التفكر في هذا الأمر والإستعداد للآخرة والبعث بعد الموت.

البذور والنباتات

يقول الحق ﷻ:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون، لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمُغْرَمُونَ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (الواقعة، ٦٣-٦٧)

فيجب أن ننظر باعتبار إلى الزروع والأشجار والنباتات التي في البيئة حولنا، وأن نشهد بتعجب ودهشة وحيرة صنعة الخالق ﷻ ونعمه. تلك النعم التي لو لم يمنحها الله تعالى ويهبها للإنسان لذهبت كل جهود الإنسان وسعيه أدراج الرياح، ولما استطاع الإنسان أن يزرع حتى عشبة واحدة. ويجب أن نفكر أن هذه الخضرة كلها التي حولنا لو تحولت إلى صحراء جرداء في لحظة فكيف ستظلم حياتنا وتصبح كالحة في غمضة عين.

الماء العذب

يقول الحق ﷻ:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُون، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾

(الواقعة، ٦٨-٧٠)

إن الماء العذب الذي ينزل من السماء هو كرم كبير وعطاء من الله ﷻ. فلو نزل هذا الماء أجاجاً من السماء فمن يستطيع أن يُحَلِّيه ويجعله عذباً، أو لو حدث جفاف فمن لديه القدرة أن ينشئ السحاب الثقال وينزل المطر من السماءِ؟!

النَّارُ

تقول الآيات الكريمة:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَتِي تُورُونَ، أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾

(الواقعة، ٧١-٧٣)

في الحقيقة يجب التفكر فيمن خلق النار التي لها فوائد كثيرة جدّاً للإنسان في الحياة، وفيمن خلق الأشجار التي نحرقها ونستخدمها في أغراضنا المختلفة؟

فلننظر إلى قدرة الله تعالى الذي يخرج النار من الشجر الأخضر. ويحب أن نفكر في ماهية تلك النار كيف تشتعل وكيف تحرق ؟!

والسائرون في الصحراء يلجؤن إلى النّار عندما تظلم الليالي ويشتد بردها. فالنار هي وسيلة لا غنى عنها

للمسافرين في التدفئة والإنارة وطهي الطعام. والبشر جميعهم محتاجون لهذه النار فالحياة بلا نار هي حياة صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة.

وعلى هذا فإن النار هي معجزة في حد ذاتها وهي حاجة ضرورية مثل الماء والهواء والتربة. لذا فقد قال رسول الله ﷺ:

"المسلمون شركاء في ثلاث في الماء والكلأ والنار"

(أبو داود، البيوع، ٦٠ / ٣٤٧٧)

ومن ناحية أخرى فإننا عندما ننظر إلى نار الدنيا فيجب علينا أن نتذكر جهنم. فيا لها من عبرة شديدة الروعة أن نفكر فيما في باطن الأرض تحتنا من صُهَارَة وحِمم سائلة.أنه محيط ناري هائل. أما فوقنا فالشمس كرة هائلة من اللهب ونحن نعيش حياتنا في هدوء وسلامة بين هذين النارين فمهما شكرنا الله تعالى على لطفه ورحمته بنا فإن شكرنا قليل عاجز!

فعلى الإنسان في مواجهة هذه النعم كلها أن يسبح الله تعالى كثيراً يقول تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة، ٧٤)

فلساننا يجب أن يسبح بالذكر، وتلاوة القرآن، وتبليغ كلام الله. وقلبنا يحب أن يسبح بالشكر والإنغماس في هذا الشعور. والأعضاء يجب أن تسبح بإقامة الصلاة، والصيام، وإقامة الفرائض والنوافل.

النجوم

يقول تعالى:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة، ٧٥-٧٦)

فالعظمة الإلهية اللامحدودة توجه تفكيرنا في الحق ﷻ إلى آفاق لا محدودة فالسماء هي تقريباً بحر بلا شطآن.

وفي هذه الآيات يُلفت النظر إلى أوقات السحر وتهجد الليالي الذي يبدأ بعد أن تختفي النجوم.

مرة أخرى فإن الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ هو أمر آخر من الأمور التي أقسم بها في هذه الآيات الكريمة. وهذا الوحي أما أن يكون آية أو عدة آيات أو سور كاملة. وكل وحي منها يسمى «**نجماً ومنجَّماً**».

القرآن الكريم

يقول الحق ﷻ:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة، ٧٧-٧٩)

يحب أن نظهر التعظيم والعظمة للقرآن الكريم إلى أقصى حد. فيحذر عليه أن يلمس الغلاف الخارجي الذي يحفظ «المصحف الشريف» بغير وضوء. والشخص الغير متوضأ لا يستطيع أن يلمس المصحف أيضاً بكم ثيابه حتى يتوضأ.

قال مالك ولا يحمل أحد المصحف بعلاقته ولا على وسادة إلا وهو طاهر ولو جاز ذلك لحمل في خبيئته ولم يكره ذلك لأن يكون في يدي الذي يحمله شيء يدنس به المصحف ولكن إنما كره ذلك لمن يحمله وهو غير طاهر إكراما للقرآن وتعظيما له.

والواقع أن التصرف بسلوك يخالف حرمة القرآن وتعظيمه يعد غفلة كبيرة. لأن الحق ﷻ يقول:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة، ٨٠-٨٢)

فإنزال القرآن الكريم هو واحدة من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها علينا. وشكر هذه النعمة تكون بإدراك جمالياته والعيش بمقتضى أحكامه.

الموت

يقول الحق ﷻ:

﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾

(الواقعة، ٨٣-٨٤)

أي أن أجل الإنسان إذا حان وجاء وعد الحق لم يعد في مستطاع أحد أن يعيد الروح أو أن يفعل شيئاً.

وتكمل الآيات فتقول:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ، فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ، تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الواقعة، ٨٥-٨٧)

وهكذا تكون قدرة الله تعالى، وهكذا يكون عجز الإنسان. فالإنسانية كلها ستسلم وتحني رقبتها مضطرة مجبرة للتقرير الإلهي. وحتى المتكبرين والطغاة الذين يعارضون أمر الله ويعاندون في حياتهم لن يرفعوا أصواتهم معترضين في تلك اللحظة. والإنسان الذي يرفع

حجب الغفلة اللامحدودة التي كانت على إدراكه سيفهم في تلك اللحظة فقط بكل جوارحه أن الله تعالى وحده هو صاحب السلطان والجبروت الحقيقي في الكون.

الميت في واحدة من ثلاثة أحوال:

(١) إما أن يكون من المقربين الذين تقول عنهم الآية الكريمة:

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ (الواقعة، ٨٨-٨٩)

(٢) أو يكون من أصحاب اليمين فتقول عنهم الآية :

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة،٩٠-٩١)

(٣) أو يكون من المكذبين الضالين والكفار والمسلمين العصاة والمذنبين الذين تخبرنا عنهم الآية فتقول:

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (الواقعة، ٩١-٩٤)

ويختم الحق ﷻ تلك السورة فيقول: **﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾** (الواقعة،٩٥- ٩٦)

سورة النمل

وفي هذه السورة يوضح الحق ﷻ صاحب الحكمة والعليم بكل شيء أنه هو الذي أنزل القرآن الكريم. وتحدثنا السورة عن عظيم قدرة الله تعالى وعلو قدره وشأنه، وعن المعجزات التي أنعم الله بها على رسوله ﷺ، وأنه سبحانه صاحب علو فوق مستوى أيّ تصور أو تخيل. وأن إرسال الرسول ﷺ كان بُشرى ووسيلة لترقي وتطور عظيم القدر للإنسانية.

ومن أجل إيضاح هذه الأمور أشارت السورة إلى قصص أنبياء الله تعالى موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام.

وهذه القصص هي أدلة نقلية توضح قدرة الحق ﷻ وكماله. وعندما لم يصدق المشركون هؤلاء الرسل فإن الحق ﷻ أحضر لهم أدلة نقلية أكثر وضوحاً وأكثر عموميةً. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل، ٦٠)

وعندما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة كان يقول في عقب هذه الآية:

"بل الله خير وأبقى وأحَكَمُ وأَكرمُ وأَجَلُّ وأَعظمُ ممّا يُشركون" (البيهقي، الشعب، جـ ٢، ٣٧٢)

وتستمر الآيات الكريمة في الدعوة إلى التفكر في المخلوقات التي هي علامات وأمارات على القدرة الإلهية فتقول:

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل، ٦١-٦٤)

سورة الروم

إن الحق ﷻ يدعو عباده في هذه السورة مرة أخرى للتفكر فيقول:

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ، أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم، ٨ – ٩)

وبعد عدة آيات يعرض الله الأدلة المتتالية المتوالية على وحدانية الحق ﷻ، وقدرته وعظمته اللامحدودة فيقول:

﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم

مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ، وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (الروم، ١٩-٢٦)

من يعرضون عن آيات الله تعالى ولا يفكرون فيها

بينما يصف الحق ﷻ عباده الخواص فيقول:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً﴾ (الفرقان، ٧٣)

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بآيات رَبّهِمْ بالوعظ أو القراءة ، لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لاَ يسمع ولا يبصر ، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية.

ويقول جل شأنه: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** (الأنفال، ٢)

فإنه يشير في آية أخرى إلى الخسران المبين الذي سيناله من لم ينل حظاً ونصيباً من فيض القرآن الكريم وروحانيته، ولم يستطع أن يفهم أسراره ورموزه، ولم يستطع أن يقف على تأويله، ولم يستمع إلى أوامره ونصائحه فيقول عز من قائل:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٤٦)

فالأشخاص المتكبرون الذين يشعرون بوجودهم، ويتفاخرون على البشر الآخرين، ويتعالون عليهم لا يمكنهم أن يتفكروا في معاني الآيات الكريمة، ولا يستطيعون أن يأخذوا العبرة منها. لأن الحق ﷻ لم يعط لقلوب الظالمين الإمكانيات التي تؤهلهم لفهم حكم القرآن والاطلاع على تجلياته العظيمة. وقد تركهم المولى ﷻ محرومين من هذا الكرم الإلهي الكبير؛ لأن القرآن الكريم الذي

هو خزينة الأسرار والحكم الإلهية لا يناسبه أن يوجد في مستنقعات القسوة تلك أي في قلوب الظالمين. فهو فقط يكون نوراً ينفذ إلى قلوب العباد والمتقين وينير لهم الطريق ويوضحه.

أما حال الغافلين المؤلم الذين ليس لهم نصيب من التقوى فإنهم لا يستطيعون التفكر في القرآن بحق؛ لأنهم قد ابتلوا بغلظة الشهوة وفظاعتها. ولو فكر هؤلاء بعدل وإنصاف في القرآن الكريم لما ظلوا بلهاء عابسين مدهشوين مذهولين أمام التعاليم الإلهية. بل على العكس من ذلك فإن سيقبلون الحق، ويتخلقون بكل خلق جميل، ويأخذون نصيبهم من الأسرار والحكم الإلهية، وفي النهاية ينفتح أمام نفوسهم طريق السعادة والراحة الأبدية.

وكما يفهم مما سبق فإنه لا يتصور أن يكون المؤمن بعيداً عن التفكر، وأن يضيع رأس مال عمره وهو التفكر؛ لأن الحق ﷻ في معرض تنبيهه لمن لا يعرف قيمة العمر ويضيعه في غير محله يقول:

﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ العصر﴾ (العصر، ١ – ٣)

ولهذا السبب يجب أن تكون نظرة المؤمن صاحب التقوى اعتباراً، وصمته فكراً،و يجب التعمق خاصة في القرآن الكريم، والتفكر في الحقائق الإلهية التي في آياته الكريمة، ويجب السعي بجد للوصول إلى معرفة الله تعالى.

ومرة أخرى فإن المؤمن يجب أن يتلقّي القرآن الكريم كخطاب جاء من الحق ﷻ إلى عباده، ويجب التَّدَبُّر بالقرآن الكريم الذي هو منبع السعادة الأبدية بشعور وعشق إيماني.

يجب أن تكون في حال مراقبة دائمة

إن المراقبة تأتي بمعان مثل التحكم في الوجدان وجمع الإهتمام في نقطة معينة. وفي التصوف تُعرّف المراقبة بأنها: «**حفظ القلب عما يضره**». وتُعرّف أيضاً بأن: «**الله يراني في كل وقت وأنه ينظر إلى قلبي**».

أي أن المراقبة هي التوجه إلى وجدان الإنسان، والتفكر، والمحاسبة الدائمة للنفس. وهكذا فإن القلب المتيقظ في كل لحظة على هذا النحو يمكن أن يكتسب حالة روحية تجعله يتعلق بالله تعالى ويلجأ إليه.

أقصر الطرق للوصول إلى الحق عَزَّوَجَلَّ

إن عالم القلب هو أيضاً ساحة للتفكر واسعة للغاية مثل العوالم الظاهرية تماماً. وما أجمل تلك القصة لمولانا جلال الدين الرومي التي توضح أهمية المراقبة إذ يقول:

«ذات يوم ذهب أحد الصوفية إلى حديقة مزينة مزهرة ليستغرق في التفكر. وأمام زينة الحديقة المختلفة الألوان أصابته النشوة وثمل. فأغلق عينيه واستغرق في المراقبة والتفكر. وكان هناك شخص غافل. فظن أن ذلك الصوفي نائماً، فتحير من حاله تلك وشعر بالضيق فقال للصوفي: «لماذا تريد أن تنام؟ افتح عَيْنَيْك وشاهد عناقيد العنب، والأزهار المتفتّحة، والأشجار والمراعي الخضراء! وانظر إلى آثار رحمة الله تعالى!»

فرد عليه الصوفي قائلاً:

«أيها الغافل! لتعلم ذلك جيداً أن القلب هو أكبر آثار الرحمة الإلهية. وكل ما عداه هو بمثابة ظل لهذا الأثر الكبير. فجدول الماء يجري بين الأشجار فتشاهد أنت انعكاسات الأشجار التي على جانبيه على صفحة مائه البراق اللامع. فمن يرى هذه الإنعكاسات على صفحة الماء يظنها حديقة غناء خيالية. أما الحديقة الحقيقة

والبستان الأصيل فيكون في القلب؛ لأن القلب هو محل نظر الله تعالى. أما انعكاساته اللطيفة الرقيقة فتكون في عالم الدنيا المصنوع من الماء والطين. فلو لم يكن كل ما في هذا العالم انعكاسًا لشجرة سرو السعادة تلك التي في القلب لما سمى الحق ﷻ عالم الخيال هذا بـ «**متاع الغرور**» إذ قال في كتابه الكريم:

﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ (آل عمران، ١٨٥)

«الغافلون الذين يظنون أن الدنيا هي الجنة وقالوا «تلكم الجنة لا غير» هم من يغترون من منظر ذلك الجدول. الذين ابتعدتوا عن الحدائق والبساتين أي ابتعادتهم عن أولياء الله ﷻ، هم من انخدعوا ومالوا إلى ذلك الوهم. ذات يوم سينتهي نوم الغفلة تلك وتفتح العيون وتنجلي الحقيقة. ولكن ماذا يفيد ذلك المنظر عند النفس الأخير؟ فَيَا لَسَاعدة ذلك الشخص الذي يعرف الموت قبل أن يموت وتأخذ روحه نفحة ذكية من حقيقة ذلك البستان»

إن المراقبة طريق مهم للوصول إلى الله تعالى، وتملك العلم والعرفان والحكمة والأسرار. حتى أن المراقبة تعد واحدة من أكثر طرق الترقي المعنوي التي في التصوف حكمةً ونوراً.

والمؤمن الذي يسعى للمراقبة عليه أن يجهز قلبه أولاً، فيجلس كأنه في صلاة ويحني رأسه. وهو على تلك الحال يجمع شعث نفسه ويتوجه إلى ربه، وفي هذه الحالة الروحية يفكر بهذا الاعتقاد: «أن الله يراني دائماً وهو معي في كل لحظة وهو أقرب إلي من نفسي». وسوف تكون نتيجة هذا الأمر أن النور الإلهي سيغمر كل شيء ويبدأ في التدفق إلى قلبك.

والمراقبة في نظر أهل العشق هي أسلم طريق وأقصره لتقريب العبد إلى الله تعالى، لأن توجيه قلبنا إلى الله تعالى أهم وأكبر تأثيرًا من توجيه سائر الأعضاء. لأن العبد مع القلب يسهل عليه أن يتوجه إلى ربه في كل لحظة، وهذا يقوي العمل بالأعضاء في مواقف مثل الشيخوخة والمرض.

وقد قال أهل الحكمة: «نَفَسٌ واحد بمراقبة الله تعالى وحضور القلب خير من أن يكون لك ملك سليمان»

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن عظم ثواب المراقبة فقَالَ:

"سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ،

وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (البخاري، الآذان، ٣٦)

أنواع المراقبة

المراقبة: أن تعيش شعور الإحسان الذي عرّفه رسولنا الكريم في حديثه مع جبريل حين سأله مَا الإِحْسَانُ؟ فقَالَ:

"أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"

(البخاري، الإيمان، ٣٨)

فالتمكن من الوصول إلى الكمال في الإسلام والإيمان هو الرباط الموصول إلى قوام الإحسان. ولكي نتمكن من أن نعيش حال الإحسان يجب علينا أن نوقن بِأن الله تعالى يرانا دائماً، وأن نراقب أنفسنا دائماً بشكل معنوي، ويجب علينا أن ننظم حالنا على هذا النحو.

فضلاً عن ذلك فإن تلك الحقيقة يجب أن تتحول إلى إدراك دائم في قلوبنا وهي: «أن الله تعالى أقرب إلينا من حَبْلِ الوريد».

وعندما تتأصل هذه المشاعر في القلب يمكن القول أن ذلك العبد قد انتقل من الإيمان إلى الإحسان. فضلاً عن ذلك يجب عليه أن يؤدي الأعمال الصالحة بقلب مملوء

بالروحانية والنور. ويستغرق في حظه من التفكر المعنوي حول القرآن والكون والإنسان.

وأهل التصوف يتعلمون أولاً التفكر في بعض الآيات لكي يستطيعوا قراءة القرآن الكريم كله بتدبر وتفكر. ومن أجل ذلك يختارون آيات تؤثر كثيراً في وجدان الإنسان وعالمه القلبي، وتقوى ارتباطه وحبه لله ﷻ. وهذا الإستغراق العميق في التفكر حول هذه الآيات يسمى عند النقشبندية «**المراقبة**».

وتوجد مراحل أربع للمراقبة:

١- مراقبة الأُحادية

وفي هذه المراقبة يُتفكر في «سورة الإخلاص». ويُتفكر في أحادية الله تعالى المتصف بصفات الكمال كلها، والمنزه عن كل أنواع النقائص. ويفكر أن لطافة القلب تتلقّى الفيوض النورانية من هذه المرتبة.

وتُصور وتُتخيل معاني الآيات التي تقيم المراقبة وتؤسسها دون الولوج إلى التشبيه وإسناد الجهة. فقد يُفكر في أن الله تعالى متصف بهذه الصفات. وعندما يضعف هذا التصور يعيد قراءة الآيات الكريمة مرة أخرى. ويستغرق في التفكر من جديد. وكلما داوم المؤمن على هذا زاد شعور الإحسان لديه، وبدأ يأخذ نصيبه من معرفة الله تعالى.

وسورة الإخلاص تذكرنا بشكل جوهري هو أن: «الله تعالى واحد لا شبيه له ولا نظير متصف بالوحدانية سبحانه».

وليس في هذه الدنيا تجل لذات الله تعالى أبداً. وهو لا يشبه أحداً من الأحداث أي أن صفته سبحانه «مخالفة للحوادث». ومهما فكرت ومهما شطح فكرك في الكون فذات الله تعالى أعظم منه. فربنا ﷻ هو المتعال، أي أنه سبحانه أعلى وأعظم من أن نعرفه. وأن الإدراك البشري سيبقى عاجزاً عن الإحاطة به. وبسبب أنه لا شبيه له ولا مكافئ فإنه ليس من الممكن إدراك ذاته.

والله تعالى هو الصمد، أي لا يحتاج إلى شيء أبدًا، وكل مخلوق يحتاج إليه. والقوى كلها في الكون تعود إليه. والإنسان يجب أن يدرك عجزه ويفكر في قدرة الله تعالى وعظمته، وعليه أن يسلم له بكل كيانه. وعلى الإنسان أن يتجرد من آنانيّته ويدرك عجزه ويقول دائماً «الرحمة يا ربي» ويسعى لكي يصبح محل تجلٍّ لصفات جمال الله تعالى.

والأحادية لا تقبل القسمة والعدد والتجزئة والشريك. ولهذا السبب فإن الله عز وجل لم يلد ولم يولد ولم يكن

له كفؤاً أحد. يعني أن الله تعالى ليس له أب أو أم أو ولد كما تدعي بذلك المسيحية؛ لأن عقيدة التوحيد لا تتحمل الشرك. فالذي يلد يتجزأ والذي يتجزأ يفنى، والشيء الذي يلد سيبتلى بالفناء في النهاية. إن التوليد والتكاثر يعود إلى الفانيين الذين لا يستطيعون البقاء بأنفسهم وذواتهم فيحتاجون للنسل من أجل الإستمرار والبقاء. واحتياج كهذا -في حق من جمع الكمالات كلها في ذاته- يعد قصوراً ونقصًا في حق الله تعالى الأحد الصمد واجب الوجود. وهو سبحانه منزه عن كل أنواع النقائص والقصور.

والحاصل أن القلب الذي هو مركز التدبر والتفكر يجب أن يستشعر بعمق تجليات القدرة الإلهية وإبداعاتها، وعليه أن يكون دائماً في حال الحمد.

٢- مراقبة المعية

في هذه المرحلة يجب أن يفكر بعمق في معاني الآيات الكريمة:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

(الحديد، ٤)

ويكون مدركاً لوجوب وضرورة أن يكون العبد في معية الله تعالى، وهذا يتحول إلى شعور في القلب.

والإنسان لا يبقى خارج علم الله تعالى وحكمه بأي شكل من الأشكال، وليس من الممكن أن يبقى خارج علم الله تعالى في أي مكان كان سواءٌ في أعماق الأرض أو في السموات. ولعل نبض القلوب، والتنفس، والرؤية، والسمع وعمل الأعضاء الأخرى بشكل منتظم تثبت أن الحق عز وجل دائمًا مع عباده.

وعندما تحين الآجال فإن الله تعالى ينزع هذه الإمكانات عنهم ويتوفاهم، يقول الحق ﷻ في كتابه الكريم:

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (المجادلة، ٧)

فالحق ﷻ هو أقرب حبيب للإنسان. وهو أقرب للإنسان من أقرب قريب له في كل أمر من أمور الإنسان سواء بعلمه، وسواء بقدرته، أو سواء بذاته، أو ملائكته سبحانه وتعالى. فالأقارب يمكنهم أن يعرفوا أحوال الإنسان الظاهرية فقط، أما الله تعالى فيعرف أحوال

الإنسان كلها ويعمل ما يرغب. وعندما يحين أجل الإنسان فليس أقرب للإنسان من الحق ﷻ في ذلك الوقت. تقول الآيات الكريمة:

﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُون، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ (الواقعة، ٨٣-٨٥)

والحق جل ثناؤه يوقظ عباده الذين ينسون وجوده بجانبهم في كل وقت ولم يتمكن هذا الشعور من قلوبهم فيقول لهم :

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّه وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ (النساء، ١٠٨)

وأيما عبد يستشعر معية الله تعالى دائماً ويدرك أن الله تعالى يرى ما يعمل يبتعد عن الذنوب والمعاصي ويرعى حدود الله تعالى.

٣- مراقبة الأقربية

في هذه المرحلة يفكر في الآية الكريمة التي تقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد﴾ (ق، ١٦)

وندرك أن الله تعالى أقرب إلينا منا من نفوسنا، ويعلم أفكارنا ونياتنا ومشاعرنا وأحاسيسنا. والله وحده يعلم كل ما يرد من أفكار وخواطر على قلب الإنسان تلك التي لا يعلمها حتى الملائكة الموكولون بكتابة الأعمال والأقوال. ولأن الله تعالى هو من خلق هذه الأفكار مثلما خلق كل شيء[٣]. ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾؟

وأي إنسان يفكر في هذه الحقيقة بالشكل اللآئق لا يملك إلاّ أن يرتعد ويقشعر بدنه ويبدأ في محاسبة نفسه. ولو استطاع الإنسان أن يُحْيِيَ في قلبه وعقله معنى هذه الآية فقط بشكل تام فإنه لن يجرؤ على أن يتفوه بكلمة واحدة لا ترضي الله ﷻ، أو حتى أن يفكر في فكرة لا يقبلها الحق تعالى. والإنسان تكفيه فقط هذه الآية الكريمة وحدها لتجعله يعيش بالتقوى في كل لحظة وتجعله مهموما دائماً بالحساب.

---

(٢) إن الحق ﷻ يتجلى عندما يظهر الخير أو الشر. أي أن العبد عندما يريد أن يرتكب فعل شر فإن ربنا ﷻ – لو أراد – يتجلى بصفة الخالق ويأذن في تحقيق غرضه ومطلبه. ولو أراد أن يرحم العبد لا يأذن له بتحقيق غايته. وتلك الحال تنطبق تماماً على أفعال الخير فلو أن العبد أراد أن يؤدي فعل خير فإن ربنا ﷻ – لو أراد – يتجلى بصفة الخالق ويأذن في تحقيق مراده وغايته. ولو أراد غير ذلك لم يأذن له في تحقيق فعله. وذلك العبد في تلك الحال يؤجر على نيته في فعل الخير. أي أن الله تعالى هو خالق الخير والشر. لكن رضاه سبحانه يكون فقط في الخير.

وفي سورة الأنفال فإن الله تعالى يخبرنا أنه سبحانه يحول بين الإنسان وقلبه فيقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال، ٢٤)

فالله سبحانه متحكم في قلب الإنسان وقريب لقلب الإنسان أكثر من الإنسان نفسه. وقدرته سبحانه المعتبرة إلى هذا الحد لا تدخل بين المرء والآخرين فقط، بل حتى تدخل بين المرء وقلبه. وهو تعالى يستطيع أن يحرم الإنسان من آماله ورغباته التي في قلبه في لحظة. وهو يستطيع أن يهدم عزم الإنسان وإرادته ويحولها إلى عكس ما يرغب الإنسان. ولهذا فإن الله تعالى عندما يسدل الحجب بين الإنسان وقلبه ويدعوه إلى الموت، فإن الإنسان لا يجد مفرّاً إلا أن يجيبه ﷻ، ولا يجد القدرة على معارضة أمره. وعلى هذا فإن الإنسان لا يستطيع أن يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك النفس الذي يتنفسه.

ويحكي أَبو مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه فيقول كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ" (البخاري، الجهاد، ١٣١)

وكما يفهم من هذا الحديث الشريف والآيات الكريمة الكثيرة جدّاً التي تشبهه فإن الحق ﷻ يرغب في ان يقترب العبد منه كما يقترب هو سبحانه من العبد. ولهذا السبب قال في كتابه العزيز:

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق، ١٩)

والشخص الذي يدرك مراقبة الأقربية أي أن الله تعالى يعلم حتى الخواطر التي ترد على قلبه، يسعى ليس للابتعاد عن الأعمال السيئة فقط، بل يظل بعيداً عن المشاعر والأفكار السيئة. ويسعى أيضاً لإصلاح نيته وجعلها مستقيمة صحيحة. ونتيجة هذا التفكر تظهر في العبد محبة وأنس عظيم بالله ﷻ.

٤- مراقبة المحبة

في هذه المراقبة يتفكر في قوله تعالى:

﴿...يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ (المائدة، ٥٤)

ونتيجة هذا التفكر فإن محبة الله ﷻ تزيد في قلب العبد. فضلاً عن ذلك يبدأ العبد في النظر إلى المخلوقات جميعها بمحبة مجلوبة من الخالق ﷻ، فينظر بمحبة

حتى للقطة والكلب أمام بيته، وللفرع الأخضر الذي في حديقته. وعندما يرى زهرة متفتحة يقول: «سبحان الله ما أجمل ما أنعمت به ! لقد أنعمت وأكرمت ومنحت هذه الزهرة»، ويكون دائمًا في حال الحمد والثناء، ولا يجرح أحداً، ويعفو عمن أساء إليه؛ لأنه يعلم أن عنده نقائص لا تعد ولا تحصى في حق الله ﷻ، ويفكر أنه لو لم يعف عن الجرم الذي ارتكب في حقه فبأي وجه يطلب العفو من الله عن الذنوب التي ارتكبها في حق الله رب العالمين.

فالعفو عن الناس حتى يتحول إلى حال تليق بعفو الله تعالى هو أفق إيماني لا يمكن إغفاله بالنسبة للمؤمنين الكاملين.

والنصر الحقيقي هو أن تتمكن من العفو عمن ظلمك دون أن تشعر بذرة من حقد أو ضغينة في قلبك.

ومن ناحية أخرى فإن العفو الخالص لله هو من أكبر مظاهر محبة الله تعالى. وإذا لم يُبْدِ هذا النوع من المظاهر فإن ادعاء محبة الله تعالى يظل لغواً باطلا لا حقيقة له.

وكل مؤمن أثناء المراقبة يفكر في هذه الآيات ويأخذ الفيض والنور على قدر إدراكه وقابليته وصدقه، ومع الوقت يسعى من أجل أن يرقى إلى مُستوى يمكنه من قراءة القرآن الكريم كله بهذا التفكر.

والعبد نتيجة هذه المراقبات يوجه عالمه الداخلي إلى الله تعالى، ولا يشغل قلبه بغير الله تعالى. ويتمسك بأمر الله تعالى فوق كل شيء، ويشغل لسانه بذكر الله ﷻ.

والعبد الصادق يشبه طفلاً مغرماً بلعبته. فالطفل عندما ينام على حب لعبته، وعندما يستيقظ ينهض ليبحث عنها. وهكذا سيكون موت الإنسان وقيامه من القبر، وذهابه إلى المحشر. ولهذا السبب فإن الإنسان يجب أن يفكر فيما يشعر به ويهمه عندما ينام في المساء.

فلو كان همَّ أي مؤمن وشغله هو الله تعالى، فإن بعثه بعد الموت من جديد سيكون على ما يرضي الله تعالى ويرضيه.

ولهذا فإن الحديث الشريف الذي رواه جابر رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول:

"يُبعث كل عبد على ما مات عليه" (مسلم، الجنة،٨٣)

ويقول في حديث آخر:

"يموت المرء على ما عاش عليه ويُحشر على ما مات عليه" (المناوي، فتح القدير، جـ٥، ص٦٦٣)

أما إذا كانت همة الشخص ومراده وغايته إلى شيء دون الله تعالى فإن بعثه يكون في نفس الطريق، ويوم القيامة لا يستطيع أن يجد أية مساعدة.

وقد أخبرنا رسولنا الكريم ﷺ عن أن ملازمة الذكر والتفكر تمكن العبد من الوصول إلى حال المراقبة بشكل كامل فقال:

"احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ..." (أحمد، جـ ١، ٣٠٧)

ويجب أن ترعى الآداب والشروط من أجل أن تستفيد بشكل خاص من المراقبة والتفكر والذكر. فليست أوقات شغل القلب بأحوال مثل الغضب والنوم والجوع من هذه الآداب والشروط، بل على العكس فإنه من جملة هذه الآداب اختيار أوقات حضور القلب وسكينته.





آداب التفكر

إن الموجودات كلها هي مرآة تجليات إلهية محمولة بيد القدرة أمام إدراك الإنسان وشعوره. وإدراك الأسرار والحكم التي في هذه المرآة مرتبط بنقاء مرآة القلب وصفائه.

وتيار العشق الإلهي المتدفق من أعلى يمر عبر خيوط القلب الإيمانية. فالإنسان هو مرآة قوام هذه الدنيا تقريبًا. وهو نقطة نفوذ التجليات الإلهية الحقيقية. ودين الإسلام بالنسبة لمن يصلون إلى الكمال بالتفكر هو فصل ربيع أبدي.

تفكر أحباب الحق ﷻ

ذات يوم ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم القيامة وفكر في الموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطي السمٰوات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال:

«وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر تأتي عليَّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق» فنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. (الألوسي، روح المعاني، تفسير سورة الرحمن، آية ٤٦)

ومرة أخرى رَأَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ طَيْرًا وَاقِعًا عَلَى شَجَرَة ، فَقَالَ:

طُوبَى لَك يَا طَيْرُ! وَاللهِ لَوَددْت أَنِّي كُنْت مِثْلَك، تَقَعُ عَلَى الشَّجَرَةِ وَتَأْكُلُ مِنَ الثَمَر، ثُمَّ تَطِيرُ وَلَيْسَ عَلَيْك حِسَابٌ، وَلاَ عَذَابٌ، وَالله لَوَددْت أَنِّي كُنْت شَجَرَةً إِلَى جَانِب الطَّرِيق مَرَّ عَلَيَّ جَمَلٌ فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاهُ فَلاَكَنِي، ثُمَّ ازْدَرَدَنِي، ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا. (ابن أبي شيبة، المصنف، ٨، ١٤٤)

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ:

(إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِى مَعَاصِى اللَّهِ وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ فِى عِبَادَةٍ لاَ عِلْمَ فِيهَا وَلاَ عِلْمَ لاَ فَهْمَ فِيهِ وَلاَ قِرَاءَةَ لاَ تَدَبُّرَ فِيهَا) (سنن الدارمي، المقدمة، ٢٩)

وقال أيضاً:

«لا خير في صلاة لا خشوع فيها، ولا خير في صوم لا امتناع عن اللغو فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، ولا خير في علم لا ورع فيه، ولا خير في مال لا سخاوة فيه، ولا خير في أُخوة لا حفاظ فيها، ولا خير في نعمة لا بقاء لها، ولا خير في دعاء لا إخلاص فيه» (ابن حجر، المنبهات، ص٣١)

مرةً أخرى فإن عليّاً رضي الله عنه كان ينظر إلى كل شيء بنظرة اعتبار، وكان يطيل التفكر، وكان يبكي كطفل يتيم، ويرتعد كإنسان مريض من خشية الله تعالى. وكان يحب العبادة كثيراً ويداوم على الزهد فكان يأكل القليل، وكان يفعل الخير الكثير. وكان دينه أعز عليه من كل شيء. وكان رضي الله عنه يقول:

«الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق والنظر والحركة. فكل نطق لا يكون في ذكر الله فهو لغو، وكل

صمت لا يكون في فكر فهو سهو،وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد فهي فترة. فرحم الله عبدًا جعل نطقه ذكرًا، وصمته فكرًا، ونظره عبرة، وحركته معبدًا، ويسلم الناس من لسانه ويده» (أبو نصرالطوسي، اللمع في التصوف، ص١٨٢)

وقد عرّف الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أهل القرآن فقال:

«ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون،وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً،حكيماً حليماً عليماً سكّيتاً»

(أبو نعيم، الحلية، جـ١، ص١٣٠)

عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت:

«**التفكر والاعتبار**» (وكيع بن الجراح، الزهد، ص ٤٧٤)

وقال عامر بن عبد قيس أحد التابعين الكبار:«سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر» (ابن كثير، التفسير، جـ١ ،سورة آل عمران، آية١٩٠)

وعندما قال أحدهم لربيع بن خثيم: دلني على من هو خير منك؟ قال: «نعم من كان منطقه ذكراً، وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً، فهو خير مني» (أبو نعيم، الحلية، جـ٢، ص ١٠٦)

وقال أبو سليمان الداراني:

«عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر» وقال: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية. والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب» (الغزالي، الإحياء، جـ٦، ص٤٥)

وقال يوسف الهمداني في كتابه رتبة الحياة:

«عندما يتلألأ التفكر الإيماني في الإنسان تعقبه الأعمال الصالحة. لذا لا بد من أن نقرن التفكر بالعمل الصالح في جميع الأحوال قدر الأمكان»

وقال الفضيل بن عياض: «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك» (الغزالي ، الإحياء، جـ٦، ص٤٤)

وقال محمد بن عبد الله أيضاً:

«التفكر خمسة أنواع:

١- التفكر في آيات الله تعالى الذي يجلب المعرفة.

٢- التفكر في نعم الله تعالى الذي يجلب المحبة.

٣- التفكر في وعد الله تعالى وثوابه الذي يجلب الرغبة.

٤-التفكر في وعيد الله ﷻ وجزائِه الذي يجلب الخشية.

٥-التفكر في جحود النفوس أمام عطاء الله تعالى الذي يجلب الحياء والندم».

وكان أبو طالب القاضي يقول:

«جوامع البر في طول الفكرة، والصمت سلامة، و الخوض في الباطل حسرة وندامة. وإنما يدعو بالويل والثبور غداً في يوم القيامة من جعل الآخرة وراء ظهره، ونصب الدنيا أمامه» (البيهقي، شعب الإيمان، جـ٧، ٤١٧/ ١٠٨١٢)

إسالة نهر التفكر إلى الأراضي الخصبة

إن الحق ﷻ قد أعطى كل عبد من عباده الإستعداد للتفكر، وأوجد نهراً متدفقاً سيّالاً من التفكر في داخل كل إنسان. وهذا النهر لا يتوقف أبداً فهو دائم التدفق. وعندما يترك هذا النهر لحال سبيله، ولا يحدد له المسار يضيع منه الطريق فلا يعرف أين يسيل وإلى أين يتجه، فيتفرق في كل مكان إن صواباً أو خطأً، وأحياناً يذهب سدى في الصحراء القاحلة. وبعبارة أخرى قد يتجه نحو عاقبة مجهولة مثل جذوع الأشجار الطافية فوق السيل.

والمهارة الحقة هي في توجيه نهر التفكر إلى الأرض المعطاءة، وتنمية المحاصيل المباركة.

والله تعالى ينبه الناس الذين لا يستعملون التفكر والتدبر في مرضاة الله تعالى في كتابه الكريم فيقول:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال، ٢٢)

ويقول جل ثناؤه:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ (الأعراف، ١٧٩)

فالقلب مثل مرآة؛ وهذه المرآة تتسخ وتصير حالكة بالغفلة والإنكار. وجلاء هذه المرآة يكون أولاً بتصديق الله ﷻ، وبعد ذلك التوجه إليه سبحانه بالمحبة. وعلى الإنسان أن يفكر دائماً في أسئلة من قبيل «لماذا جئنا إلى هذه الدنيا؟ وفي ملكوت من نعيش؟ ومن يرسل رزقنا؟ وإلى أين تكون نهاية الرحلة؟.

وأي إنسان تستغرقه حياة شهوانية بشكل يبتعد به عن هذه الحقائق، ولا ينشغل في أن يعرف قلبه الحق ﷻ، ويفكر في الأدلة على وجوده سبحانه سيكون مسافراً إلى آخرة حزينة وعاقبة خاسرة.

وهذا النوع من البشر لا يرون النعم الإلهية التي توضح هذه الحقيقة بلسان طلق واضح، ولا يفكرون فيها. ولهذا السبب فإنهم يُشبهون بالحيوانات التي هي مثال الضلالة والغفلة؛ لأن رغباتها كلها تنحصر في المأكل والمشرب وإشباع شهواتها. لذا قال الحق ﷻ:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان، ٤٣ - ٤٤)

وقال أحد أحباب الحق:

«هذا العالم بالنسبة للعقلاء هو مشهدٌ لبدائع صنع الله تعالى، أما بالنسبة للحمقى والجهلاء فهو عبارة عن المأكل والشهوة».

ومن ناحية أخرى فإن التفكر - مثلما أوضحنا من قبل - هو سلاح ذو حدين. يمكن أن يستخدم في الخير، ويمكن أن يستخدم في الشر. وهو يمكن أن يدخل في باب أعمال

النفس الشهوانية، ويمكن أيضاً أن يدخل في باب الأعمال الروحانية العليا. والله ﷻ ينبه من يستخدمون استعداد التفكر لديهم في طرق الشر والسوء فيقول الحق ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يونس، ١٠٠)

والواقع أن أكبر خبث وسوء يصيب الإنسان هو مرض الإنكار. فمن لا يشغل قلبه وعقله بآيات الله تعالى المكتوبة والمرئية، ولا يفكر فيها، ولا يعقلها؛ لا يستطيع التخلص من هذا المرض وهذا الخبث.

فالعقول التي تتغذى بنور الإيمان وتسير على هدى الوحي تجد طريقها لمعرفة الله تعالى وإلى توحيده. أما العقول المحرومة من ذلك فلا يمكن أن تنال الحق والخير. وهذا هو أكبر خداع للفلاسفة الذين يعتقدون أنهم يمكن أن يجدوا الحقيقة بعقولهم فحسب دون أن يسترشدوا بالوحي. لأنهم يظنون أن عقولهم البعيدة عن الإيمان يمكن لها أن تجد طريقًا للحق والخير.

ومن ناحية أخرى يجب ألا ينشغل العقل والقلب بأشياء تافهة لا معنى لها لكي يتمكن من استعمال نعمة التفكر على نحو صحيح.

فعلى سبيل المثال تقول الآيات الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون، ٣)

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ (الفرقان، ٧٢)

ويقول الحديث الشريف:

"إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكَهُ مَا لاَ يَعْنِيه" (الترمذي، الزهد، ١١)

وأنجع علاج لأمراض الشهوة هو تكثيف تفكر الشخص وتركيزه حول الأشياء المفيدة، والإبتعاد عن الإنشغال بالأشياء التي لا تفيد النفس. فالتفكر في الأشياء التافهة التي لا معنى لها هو باب للشر كله والهزيمة والذلة، ومن يفكرون في الأشياء التي لا تنفع تفوتهم الأشياء النافعة ويحرمون من الأشياء الضروريّة اللازمة لنفوسهم.

يقول ابن الجوزي:

«ذكر القلب فى المباحات يحدث له ظلمة فكيف تدبير الحرام؟!. إذا غير المسك الماء مُنع الوضوء به فكيف ولوغ الكلب؟! ولذا قال بعض الكبار من اعتاد بالمباحات حُرم لذة المناجاة. اللهم اجعلنا من أهل التوجه والمناجاة» (البروسوى، تفسير روح البيان، المؤمنون، آية ٥١)

فالإنسان لو لم يوجه قوة التفكر والتدبر والتخيل والتصور التي لديه إلى الخير، فإن الشيطان سيوجهها إلى الشر. وعلى ذلك فإن ذلك الإنسان لا يمكن أن يكون صاحب نعمة تفكر رحمانية؛ بل إن الإمكانيات العقلية والقلبية التي أنعم الحق ﷻ بها ستسبب له الضرر بدلاً من الإستفادة منها وستكون نقمة شيطانية.

وفي تلك الحال فإنه يجب على كل مؤمن أن يتعب عقله وفكره دائماً في الحق والخير على الطريق المستقيم الذي وضحه القرآن الكريم والسنة المطهرة.

يجب اقتران التفكر بالذكر

يقول الشيخ يوسف الهمداني:

«إن القلب والذكر كالشجرة والماء. أما القلب والتفكر فهو كالشجرة والثمرة. فمن العبث انتظار اخضرار الثمرة دون أن تُسقى بالماء، وطلب الثمرة منها دون انتظار تفتح الأوراق والأزهار. وحتى لو أردنا ذلك فلن تثمر الشجرة أبداً. لأن ذلك الوقت ليس وقت الإثمار، بل هو وقت تغذية الشجرة ورعايتها. فلابد أن تعطيها الماء وأن تطهرها من الحشائش الضارة والأشياء الغريبة. ثم يجب انتظار ضوء الشمس أيضاً. وإذا ما تحققت كل هذه الأشياء فإن الشجرة تنمو وتنضج وتتزين بالأوراق الخضراء. وبعد

أن تكتسي الشجرة بهذا الجمال يكون من الجد والصواب طلب الثمار من فروعها. فذلك الوقت هو وقت الإثمار»
(الهمداني، رتبة الحياة، ص ٧١)

يقول الحسن البصري:

«إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت: بالحكمة» (الغزالي، الإحياء، جـ٦، ص ٤٦)

والحاصل أن الذكر والتفكر لا يجب أن ينفصلا عن بعضهما البعض. وأهم خصائص الذكر هي أن تقوم به بشعور وتفكر في معانيه. وقد عبر السيد خواجه محمد پارسا - أحد أولياء الله الكبار - عن هذا المعنى قال:

«عندما تنطق بالكلمة «لا إله» في لفظ الشهادة فإنك تفكر في أن المخلوقات كلها مصيرها إلى الفناء. لذا يجب أن تمحوها من قلبك، وتبعد كل ما دون الله تعالى عن ذهنك وعقلك. وأن تملأ القلب بإدراك وشعور قوامه إنك لست عبداً إلا لله عَزَّ وَجَلَّ. وعندما تقول: «إلا الله» فيجب عليك أن تفكر في الموجود الذي لا نظير له، الواحد الأحد، وتتوجه إلى الله تعالى صاحب الوجود الأبدي بالمحبة والتسليم. وبهذه الصورة تتجلى في قلبك صفات جمال الله عَزَّ وَجَلَّ».

وقال محمد بهاء الدين النقشبند – قدس سره – :

«إن المقصد من الذكر ليس أن تقول «الله» و«لا إله إلا الله» فقط، بل عليك أن تذهب إلى الله تعالى مسبب الأسباب بكليتك، وترى مجيء النعمة منه». أي أن حقيقة الذكر أن ترتقي من ساحة الغفلة إلى أفق المشاهدة.

أما مولانا جلال الدين القوني- قدس سره - فيقول:

«إن ربنا ﷻ الواحد الأحد الذي لا شبيه له ولا نظير قد إذن لنا قائلاً: «اذكروا الله» فهو قد رآنا في النار فأنعم علينا بالنور .فالذكر الذي يتم بالفم واللسان فقط دون تفكر وإحساس هو خيال ناقص. أما الذكر الذي يتم بالروح والقلب وبالشعور الوجداني الخالص فقد تطهر وبرأ من الكلمات والأقوال».

إن محبة الله تعالى تزيد مع الوقت في الشخص الذي يذكر اسم الله تعالى وصفاته بالتفكر والتدبر. لأن ذكر الله تعالى ليس بأن نكرر لفظة «الله» وحسب؛ بل هو تمكين لمحبة الله تعالى في القلب الذي هو مركز الإدراك.

والإنسان في ظل الذكر والتفكر يصل أولاً إلى محبة الله، ثم في ظل تلك المحبة يبدأ في معرفته سبحانه. ونتيجة ذلك أن يحبه الحق ﷻ ويصطفيه ويتخذه خليلا.

والذكر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- الذكر باللسان.

- الذكر بالبدن.

- الذكر بالقلب.

فأما **ذكر اللسان** فهو ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته العليا، وحمده وتسبيحه وتنزيهه، وقراءة كتابه، والدعاء له.

وأما **ذكر البدن** فهو انشغال كل عضو في الإنسان بما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى عنه.

أما **ذكر القلب** فيوضحه المالِلي حمدي أفندي قائلاً:

«ذكر القلب هو ذكر الله تعالى بالقلب وهو ينقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي:

١- التفكر في الأدلة التي تدلك على ذات الله تعالى، وصفاته، والبحث عن الأجوبة التي تَرِد على القلب من شبهات في حقه عَزَّوَجَلَّ.

٢- التفكر في حقوق ربنا تعالى علينا وواجبات عبوديتنا. أي التفكر في أوامر الله تعالى ونواهيه، والأدلة عليها، والحكمة منها. لأن الإنسان عندما يعلم ماهية التكاليف وثمرة طاعته للأوامر الإلهية تزداد رغبته أكثر في الأعمال الصالحة.

٣- التفكر في المخلوقات التي في العالم الداخلي والخارجي، وأسرار الخلق التي فيها، وإدراك أنَّ كلَّ ذرة فيها هي مرآة للعالم الإلهي. ويجب أن تنعكس على تلك المرآة أنوار عالم الجمال والجلال تلك. وكل لمعة ذوق وجداني تؤخذ منها في لحظة شعورية تصل إلى هذه العوالم.

فلا نهاية لمرتبة الذكر تلك والإنسان في هذه المرحلة ينخلع من نفسه ويهرب من العالم. ويفني شعوره كله في الحق ﷻ، حتى لا يبقى أثر أو علامة من الذكر والذاكر، فقط يُحس بالمذكور ﷻ. وفي الواقع كثيرون من يتكلمون عن هذا المقام ويتحدثون عنه، ولكن من يصلون إليه لا يتكلمون لكنهم فقط يعملون»[1].

وإن الموجودات كلها هي مرآة تجليات إلهية محمولة بيد القدرة أمام إدراك الإنسان وشعوره، وإدراك الأسرار والحكم التي في هذه المرآة مرتبطةٌ بنقاء مرآة القلب وصفائه.

وتيار العشق الإلهي المتدفق من أعلى يمر عبر خيوط القلب الإيمانية. فالإنسان هو مرآة قوام هذه الدنيا

(١) الماللي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي، أستانبول، ١٩٣٥، البقرة، ١٥٢)

تقريباً، وهو نقطة نفوذ التجليات الإلهية الحقيقي. ودين الإسلام بالنسبة لمن يصلون إلى الكمال بالتفكر هو فصل ربيع أبدي.

الأسحار أكثر الأوقات بركة للذكر والتفكر:

إن المحب يذكر محبوبه كثيراً. والشخص الذي يذكر شيئاً ما كثيراً يبدأ بعد مدة في حبه أكثر. أما عظم المحبة فتقاس بالتضحية التي تبذل في سبيل المحبوب. وهكذا فإن ترك النوم النهائي في أوقات السحر والتوجه إلى الله ﷻ ومناجاته هي واحدة من أجمل مظاهر المحبة الحقيقة.

ويجب أن نفكر أن الأسحار تحمل تقريباً الرحمة الإلهية والمغفرة. فالبلابل بإلهام من البركة الإلهية تغرد بأعذب النغمات، والورود المتفتحة المتداخِلة الألوان تعطي بسخاء في ذلك الوقت أطيب العبير. فَيَا لَخسارة وبؤس وشقاء وتعاسة من يحرم من مائدة الرحمة الإلهية تلك!

كما أن أكثر أقسام اليوم قيمة فهي أوقات السحر التي تأتي في الثلث الأخير من الليل. وأوقات السحر هي لحظة يبتعد فيها الذهن عن المشاغل، ويصفو فيه القلب ويرق، ويغمر السكون الآفاق، وتضعف العلائق الفانية. وفي هذا الوقت تنزل الرحمة الإلهية، ويكون رب العالمين أقرب

ما يكون إلى العبد. وأوقات السحر هي أنسب الأوقات للاعتبار لمن يفكرون ويعتبرون؛ لأنها أوقات تخلو من المشاغل، ويستطيع القلب أن يتوجه فيها إلى الله تعالى بالمعنى الكامل، وهي أكثر الأوقات إثمار وعطاء وبركة بالنسبة للتفكر.

يقول الحق عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً، نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ (المزمل، ١ – ٧)

والنهار الذي يقابل سكون الأسحار هي أوقات تتشتت فيها الدقائق وتتبعثر، ويزيد فيها الضجيج. والشخص الذي لا يعرف قدر أوقات الليل المؤثرة لا يستطيع أن يتوجه إلى الله تعالى بين مشاغل النهار، ولا يستطيع أن يصل إلى روحانية العبادة ونورها التي تتحقق في الأسحار.

والحاصل أن وقت السحر هي لحظة اعتناء واعتبار مخصصة للعبادة، أما النهار فهو نعمة جميلة وهبت للسعي واكتساب الأرزاق. أي أن المؤمن في أوقات السحر يكون مع الله وحده، أما في أوقات النهار يكون مع الحق بين الناس.

لذا نجد السيدة عائشة رضي الله عنها تحدثنا عن اهتمام رسولنا الكريم بتلك الأوقات المباركة فتقول لأحد الصحابة:

«لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً» (أبو داود، التطوع، ١٨)

وكان رسول الله يستفيد من الليالي خاصة في التفكر، وكان يقوم الليل وهو في ركوع وسجود متصل حتى تنهمر دموعه وتتورم قدماه.

قال أحد كبار العلماء:

«ليس هناك مفتاح أعظم من أن تنهض وقت السحر لكي تستطيع أن تفتح باب الحق عز وجل، وتفتح أقفال بحر التفكر. لأن الإنسان في ذلك الوقت يبتعد عن علائق الدنيا الفانية، وهمومها، وأطماعها، ويدخل مع ربه عز وجل إلى وقت المعية. فيستريح بدنه، ويلم شعثه، ويصفو ذهنه، ويرق قلبه. والحاصل أن أوقات الأسحار هي أنسب الأوقات التي بين الليل والنهار. فأجمل النسمات وأرقها تهب في ذلك الوقت. ذلك أنه في الأسحار يتخلل الضياء سدول الظلمة. أما في المساء فإن الوضع عكس ذلك فإن الظلمة تهبط على الضياء فتخنقه»

يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة، ١٦)

إن استغفار أي مؤمن في الأسحار والتفكر في العذاب الإلهي، والإحساس به، وتذكر الموت، والتخطيط الجيد لما تبقى من حياته، والتفكر في القرآن الكريم هي من الأعمال الصالحة التي يحبها الله عَزَّ وَجَلَّ ويرضى عنها.

فالحق عَزَّ وَجَلَّ قد بشَّر عباده الذين يحيون الأسحار، ويقضون عمرهم في الإنفاق في سبيل الله فقال:

﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة، ١٧)

وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الآيات الكريمة فقال:

"قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعبَادِي الصَّالِحينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر" (البخاري، بدء الخلق، ٨)

ويفهم من هذا أن نعم الجنة التي لم نُخبر بها تعد أكثر بكثير من النعم التي نعرفها. وفي بعض الروايات أن تلك النعم لا يعلمها حتّى الرسل والملائكة المقربون .

النتيجة

التفكر هو مفتاح الحقيقة والنجاة

إن الوصول إلى الحقيقة يكون ممكناً فقط بالتفكر والإستدلال. فالشخص الذي يتصرف مثل الأعمى والأصم تجاه رؤية وسمع الأدلة أي نقوش القدرة وتجليات العظمة كيف يستطيع أن يجد الصواب ويعرفه؟ ولهذا السبب قيل: «إذا كانت المعارف لا توقظ المشاعر والأحاسيس فليست بمعارف ولا بعلوم».

وقد تحدث الحق ﷻ في كتابه الكريم عن موقف الكافرين الذين لا يجدون الحقيقة فقال: ﴿**إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾ (النمل، ٨٠)

والإنسان الذي يعتقد أنه سلم من آفات الوهم والخيال والهوى لو سعى لكي يأخذ نصيبه من النسيج الوجداني لسيدنا محمد ﷺ بعقل تَربَّى بالوحي فإنه سيصل إلى الحق والخير. ولو فكر بما يليق في معجزاته وأخلاقه وسيرته ﷺ لأدرك أنه نبي صادق بحق، ولأدرك أن ما دعا

إليه هو الحق الكامل. وتكون نتيجة هذا التفكر أن ينجو ويتخلص - بإذن الله تعالى - من رغباته الشهوانية ومن دهاليز العقل المسدودة.

وقد أخبرنا الحق جل ثناؤه عن حال أصحاب الندامة وعن الحسرة والندامة التي لا تفارقهم في النار فقال:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر،٣٧)

ويمكن القول أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى الحقيقة والفلاح الأبدي بطريقين:

١ - أمّا أن يجد المؤمنين ويسلم نفسه لهم، ويطيع الله تعالى معهم داخل دائرة روحانيتهم وفيضهم.

٢ -أو يستعمل إمكانات التفكر والتدبر التي وهبها الله تعالى له على هدي القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأن يحني ويُخضعَ نفسه وقلبه وعقله لهما.

فالإنسان إذا لم يطع أهل الحقيقة، وإذا انحرف عن الطريق الذي يوضحه العقل الذي يفكر بإنصاف وعدل فمن المؤكد أن نهايته ستكون عذاباً مريراً.

التفكر الحقيقي هو إثبات "واجب الوجود" (وجود الله تعالى)

كما أوضحنا فيما سبق فإنه ليس في مقدور الإنسان إدراك ذات الله ﷻ؛ لأن طريق العلم البشري يتمثل في الحواس الخمس والعقل والقلب. وقدرة هذه الإمكانات كلها محدودة، ولا يمكن عن طريق واسطة محدودة الإحاطة بوجود مطلق أزلي أبدي. وهذا الإدراك الذي يتم بواسطة محدودة يكون محدوداً.

ولهذا فإن الإنشغال بالأعمال التي تتجاوز الطاقة البشرية كالتفكر في ذات الله تعالى، والسعي إلى حل كنه أسرار القدرة وحكمتها يعد أمرًا محرّماً في الكتاب والسنة. فإذا كان عدم التفكر في الحقائق الإلهية سبباً لمصيبة معينة، فإن جهل الإنسان بحدوده، وانشغاله بأمور تفوق قدرته وإمكاناته هو مصيبة أكبر تؤدي به إلى خسران كبير.

ولهذا السبب فإن رسول اللهﷺقال:

"تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ -يَعْنِي عَظَمَتَهُ- وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ" (البيهقي شعب الإيمان، جـ ١، ١٣٦؛ الديلمي، حـ ١١، ٥٦)



ويقول الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي:

«كل ما خطر ببالك فالله غير ذلك»؛ لأن إحدى الحقائق التي يعلمها الإسلام لنا هي أنَّ من صفات ذات الله تعالى «مخالفة للحوادث» أي لا تشبه أي شيء مخلوق. ولهذا السبب فإننا عندما نصف إنساناً ببعض الصفات الخاصة بالله تعالى كأن نقول عنه أنه عالم وعادل فهذا لا يعد من قبيل الشرك؛ لأننا نعتقد ونؤمن أن صفة الله ﷻ مخالفة للحوادث.

ومع أننا لا نملك الإمكانات التي تحيط وتدرك حقيقة ذات الله ﷻ، فإنه من الممكن أن نستدل قلباً وعقلاً على وجوده ووحدانيته من خلال تجليات صفاته في الكائنات والأحداث. وهذا هو الشيء الوحيد الممكن بالنسبة للإنسان المحدود القدرة والإمكانات مثل جميع المخلوقات. وهذا بالقطع يكفي في حق الله تعالى بالنسبة للمؤمن. ولهذا السبب فإن علماء الإسلام كانوا يقولون: «ذروة العلم وأفضله: معرفة الله تعالى».

والإنسان حقيقة هو صاحب إدراك يتجه فقط من الصفة إلى الموصوف، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع. والإنسان عندما ينظر إلى نعم الله تعالى التي

أنعم الله بها على مخلوقاته كلها يستطيع بهذة الطريقة أن يفهم -على قدر استعداده وإمكانته- عظمة الله تعالى وقدرته ورحمته. أي أن كل شخص يستطيع أن يأخذ من ماء بحر معرفة الله تعالى على قدر حجم قلبه فقط.

يقول مولانا جلال الدين القُونَويّ:

«ذات يوم تثور رغبة فيك تقول: يلزم أن أرى نور الله تعالى في البشر. فهل تدرك أن ذلك يعني أنك تريد أن ترى البحر في قطرةٍ أو الشمس في ذرة!»

فلو أن الإنسان نظر إلى صفات الحق ﷻ وأفعاله وآثاره بتدبر وتفكر حقيقي وإدراك سليم فلن يفكر أبداً أن يكون من المنكرين. لأن الإنكار يبدأ في المكان الذي تفسد فيه الأحاسيس القلبية، والفعليات الذهنية والفكرية.

أي أنه ليس من الممكن أن ينجر شخص عدل ذهنه وقلبه على الفطرة إلى الكفر، حتى لو فتح هذا الشخص عيناه في عالم الكفر فإن احتمال أن ينجو من الكفر يكون مرتفعًا للغاية.

مثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ولد في بيئة مشركة ونشأ فيها إلا أن فطرته القلبية والعقلية الخالصة

السوية جعلته يصل إلى توحيد الله تعالى ويتعرف على وجوده سبحانه كما فصلت ذلك الأمر الآيات الكريمة في القرآن الكريم.

وعلى هذا النحو فإن الإنكار المطلق لا يجوز في حق شخص يفكر بشكل سوي. لأن تسمية شيءٍ ما بـ«**الفناء**»هو هراء محض ويجب إثبات هذا القول بالأدلة والإثباتات الصحيحة المقنعة.

ومن لا يستطيعون حل كنه الحياة والكون وما بعد الموت لماذا يستدلون ويثبتون رأيهم بكلمة «**الفناء**» فقط؟! وهذا الوضع يشبه موقف الأشخاص الذين تشعر معدتهم بالجوع لكنهم لا يلاحظون هذا بسبب فساد صحة أجسامهم. وجوعهم في هذه الحال لا يشبه جوعنا، بل هو دليل وإثبات على مرضهم. كما أن الشخص المصاب بالشلل وفقدان الشعور في جهازه العصبي لا يشعر بالمسمار الذي ينغرس في جسده أو السكين الذي يقطع أعضاءه. والأشخاص الذين عميت أرواحهم عن رؤية هذا النور، ولم يلاحظوا تلك الحقائق العليا يكون حالهم مثلما وصفهم الحق ﷻ بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ...﴾ (البقرة، ١٨)



لأن الله تعالى قد غرس في فطرة كل إنسان الحاجة للإيمان والبحث عن الحقيقة والقدرة على الوصول إليها. ومن أجل ذلك فإن الانقطاع والشرود عن الإيمان والحقيقة يكون فقط بسبب عمى روحه وانسداد قلبه. ومع أن روح الشخص غير المؤمن تكون إما في حال استعداد لإدراك الله تعالى، أو في حال إدراك له إلا أنه لا يستطيع أن يستفيد من هذا الشعور بسبب عماه وصممه الروحي. وهذه الحال تشبه تمامًا الرؤى التي نراها ولا نتذكرها.

وبعبارة أخرى فإن ميل روح الإنسان إلى الإيمان هو شيء فطري. وهذا الميل يظهر لدينا كحاجة لا يمكن الإستغناء عنها مثل حاجتنا للطعام عندما نشعر بالجوع. فأي طفل يرى والده يؤدي الصلاة لا يسأل أسئلة تدور حول كيفية أداء الصلاة، بل يبادر بأداء الصلاة والتعبير عنها بشكل حركي مشخص، وذلك لأنه لم يستطع أن يدرك عظمة الله تعالى وقدره وقُدْرتَه بشكل مجرد.

ويكون داخله شغف دائم فيريد أن يسأل عن مدى عظمة الله تعالى وقدره؟ وإلى أين نذهب بعد الموت؟ وكيف تكون الجنة والنار؟. وذلك لأن المشاعر الإيمانية في فطرة الإنسان تكون مكنونزة مخزونة. وعندما يعلو هذا



الإستعداد المكنوز فوق الشعور يصير الإنسان مؤمناً. أما إذا ما حُبس هذا الشعور تحت الشعور صار الإنسان كافراً، تماماً مثل طائر محبوس في قفص لو تحرر من القفص بعد حياة الحبس الطويلة تلك لما استطاع أن يطير؛ لأن جناحه قد تكلس وتيبس. مثل هذا تماماً حس الإيمان عندما لا يعلو على الشعور فتعمى قابلية الإيمان لدى الإنسان.

وعلى هذا فيجب علينا أن نعرف الله تعالى على قدر استطاعتنا واستعدادنا. فالله الذي أوجدنا من العدم - سبحانه - يجب علينا بشكل حتمي وضروري أن ندرك على نحو صحيح صفاته ﷻ وأفعاله، وذلك من أجل أن نصل إلى معرفته حق المعرفة.

فالله تعالى صاحب الحكمة في كل شيء عندما أرسل رسوله ﷺ ليبلغ دينه للمشركين لو كان أول ما نزل من القرآن على رسوله: «اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له ولا نظير ولا مثيل» لجلب هذا معه اعتراضاً مؤكداً، ولقلت احتمالات أن تتشرف مدارك المشركين بالإيمان. ولكن الله ﷻ قد بدأ بصفة «الخالق» حتى لا يستطيع أحد من المشركين أن يعترض لذا قال سبحانه:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق، ١)



فهؤلاء المشركون الذين كانوا يعلمون أن الأصنام لا تستطيع أن تخلق شيئًا قد فهموا من تلقاء أنفسهم أن الله هو الإله الحق، وأنه وحده هو المستحق للمدح والثناء.

وفي ذلك يقول البيضاوي في تفسيره:

«وقد عدد سبحانه وتعالى مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه، من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبه على ما يدل عليها سمعاً»

(البيضاوي، التفسير، سورة العلق، ٥)

والحاصل أن الحق ﷻ قد جعل التفكر فيما خلق وسيلة لدخول المشركين في الإسلام وتشرفهم بالإيمان. وجعل تفكر المؤمنين في هذا الأمر وسيلة لتقوية إيمانهم وزيادة القرب منه ﷻ.

كل شيء يتحرك ويتغير

لو فكرنا وتأملنا لوجدنا أن كل شيء في هذا العالم الذي نراه يتغير ويتبدل من صورة لأخرى، فالنطفة تصير علقة، والعلقة تتغير إلى مضغة، والمضغة تتحول إلى عظام ولحم. وهذا النوع من التحولات يكون في كل شيء في النجوم والكواكب والمعادن والنباتات أي في كل شيء.

وداخل الذرة توجد حركة منتظمة. فالألكترونات تدور بسرعة لا يمكن لعقل أن يتخيلها. أما البروتونات والنيترونات فإن سُرْعتها عندما تتزاحم وتنضغط في حيز صغير للغاية فإن سرعتها ترتفع إلى أرقام غير طبيعة مقارنة بالألكترونات. فمثلا تسير بسرعة تتجاور ٦٠ ألف كم تقريبا في الثانية. وهذه السرعة المرتفعة تكون السبب في رؤيتها كأنها «قطرات سائل تغلي وتفور وتثور» بشكل لا يصدقه عقل.

قد عبر الشاعر التركي شِنَاسي عن أن ذرة واحدة تكفي في الإنتقال من الأثر إلى المؤثر فقال:

يا إلهي ما الحاجة للكون لمعرفة وجودك

يكفي ذرة واحدة خلقتها لإثبات وجودك

ولو فكرنا أن مساحة ١مم^{٢} والتي تعادل رأس ابرة تقريباً تتكون من ١٠٠ تريليون ذرة لأدركنا أحسن إدراك كيف هو أثر القدرة في حركة الكون.

وهكذا فإن كل هذه الحركات والتغيرات تحتاج إلى مؤثر حقيقي لإحداث هذا الأمر. وهذا المؤثر هو الله تعالى الخالق المتعالي؛ لأن ظهور وحدوث تلك الأحوال الخارقة للعادة -والتي تُصبُ العقل بالدهشة والحيرة- دون مؤثر ما أو فاعل غير عاقل ليس ممكنًا بالقطع.

كل شيء مخلوق لغاية

إن كل شيء في ذلك العالم يظهر بوضوح أنه مخلوق لحكمة وغاية وفائدة معينة. ومثلما قلنا قبل ذلك: إن ضوء الشمس والقمر يفيد المخلوقات كلها التي على ظهر الأرض ويجلب لها الخير والنماء. ومع دوران الأرض والقمر حول الشمس تظهر الأوقات. فمع دوران الأرض تظهر المواسم والسنون والأيام والليالي. ومع دوران القمر تظهر الشهور.

والهواء الذي نتنفسه دائمًا ينظف ويطهر الدم الذي يذهب إلى الرئتين. والهواء وفير وسهل الحصول عليه إلى أقصى درجة؛ وذلك لأن أجسامنا تحتاج إليه أكثر من أي شيء.

والرياح تحمل السحاب وتسوقه إلى المكان الذي يحتاج الماء. أيضًا فإنها تنظف الهواء وتضبط الحرارة وتلقح النباتات. وعلى نفس الشاكلة فوائد البحار التي لا يحصرها العد.

وكل هذه الأشياء وغيرها الكثير التي لا يمكن أن نحصرها ونعدها هنا من المعلوم أهميتها في حياة الإنسان. لذا فعلى أي إنسان أن ينظر إلى هذه الأشياء والأمور بنظرة اعتبار ويفكر فيها حتى يصل إلى نتيجة مفادها أن جميع المخلوقات كلها قد خُلقت لحكمة كبيرة وغايةٍ عظيمةٍ.

أما العقل الذي يعُد كل هذه الأمور من قبيل الصدفة فقد حاد عن الإنصاف وجاوز الإدراك؛ لأن هذه الأشياء هي آثار صانع صاحب علم وحكمة وقدرة وعظمة؛ ذالكم الله ربُّ العالمين.

آثار مختلفة تظهر من مادة واحدة

إن أصل المخلوقات المختلفة التي نراها في بيئتنا هو أصل واحد. فكلها قد جاءت من نفس المادة. والعناصر المختلفة هي أجزاء لنفس الماهية فمثلاً الأجرام السماوية قد خُلقت من نفس المادة. ولكن لكل منها هُوية وعمر ومقدار ومكانة خاصة. فقسم منها بارد للغاية، والقسم الآخر حار لأقصى درجة. والنباتات والحيوانات كلها جاءت من عناصر مثل الكربون والنيتروجين والأوكسجين والهيدروجين. وحتى الآن لم يجد العلم أية علاقة في الحياة بين هذه المواد وبين صفات مثل السمع والرؤية والقدرة والإرادة.

وهكذا فإنَّ جميعها هي بدائع الصنعة الإلهية. وإن هذا الوجود المكمل واللافت للنظر إلى هذا الحد الذي نراه في الكون هو أثر لصانع صاحب قدرة مطلقة. وليس من الممكن أن يشبه من أوجد هذه البدائع الخارقة للعادة



أحد أتى بعده؛ لأنه سبحانه هو «واجب الوجود» أي الذي أوجد الوجود بنفسه، وهو الأزلي والأبديُّ سبحانه ﷻ.

والحاصل أنه ليس من الصعوبة أبداً على إنسان يفكر أن يجد ربه وأن يتعرف عليه. حتى الإنسان الكافر في ظل التفكر يمكن أن يدخل في الإيمان. أما المؤمن فيزداد إيمانه في ظل التفكر ويبدأ التقدم في مراتب المعرفة والمحبة.

طريق معرفة الله تعالى

كان علماء الكلام يقولون: «أول ما أُمر به الإنسان التوجه إلى التفكر الموصل لمعرفة الله ﷻ». وكانت غاية القرآن الكريم وقصده الأساسي هو تخليص العقول والقلوب من الإنشغال بما سوى الله تعالى، ودفعها إلى معرفته سبحانه وتعالى.

فالله تعالى قد خلق الإنسان من أجل أن يعبده ويتعرف عليه. والإنسان يستطيع أن يصل إلى هذه الغاية عن طريق الذكر والتفكر. فالعبادة هي جوهر حياة الإنسان. أما الذكر فهو واحد من أجمل أشكال عبادة الحق ﷻ. والذكر والفكر توأمان لا ينفصلان أبداً.



ومما لا شك فيه أن أهم شيء بالنسبة للإنسان أن ينال السعادة الأبدية والفرح الدائم. وكل مطالب الإنسان الأخرى مقارنة بهذا الأمر تبدو تافهة لا أهمية لها. و(**المعرفة**) هي أهم الوسائل التي توصل الإنسان إلى السعادة والفوز الأبدي.

فالمعارف العلمية تفسر أي حادثة عن طريق علاقة السبب - النتيجة. أما «المعرفة» فإنها فضلاً عن ذلك التفسير فإنها تتحقق بإدراك تجليات الإرادة في تلك الحادثة. ولهذا السبب فإن المعارف التي تدور حول الله تعالى تسمى «معرفة الله تعالى» أي إدراك وجود الله تعالى وفهمه عن طريق المعرفة.

ولهذا السبب ذكر التفكر في الآيات ٨٤-٨٧ من سورة المؤمنون قبل التقوى؛ لأن الناس يصلون إلى المعرفة بالتفكر والتدبر. ويعرفون أن من واجبات التقوى وضرورياتها اجتناب ما نهى الله عنه، والحذر من مخالفته عز وجل بعد أن عرفوه حق المعرفة؛ لأن أي عمل بدون معرفة الله ليس له أية قيمة، وفي هذا يقول الحق ﷻ:

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾

(المؤمنون، ٨٤-٨٧)

والحاصل أن أرقى العلوم وأعلاها هو بلا شك **معرفة الله تعالى**. لذا كان الجنيد البغدادي - قدس سره - يقول:

«لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه»

وقال الإمام إبن القيم عليه رحمة الله:

«الرب يدعو عباده في القرآن الى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته. وثانيهما: التفكير في آياته وتدبّرها. فالأولى آياته المشهودة، والثانية آياته المسموعة المعقولة» (ابن القيم، الفوائد، ص٣١)

وما أجمل قول الشاعر:

الكون كله هو كتاب الله الأعظم

كل حرف فيه يدل على الله

يجب أن يتحول التفكر إلى عمل

يجب تطبيق المعارف التي اكتسبتها بالتفكر والذكر والمراقبة من أجل الوصول إلى الحقيقة. ويمكن القول أن أي إنسان يفكر في الحقائق الإلهية وآيات القرآن الكريم عندما لا يعمل بمقتضى تلك الحقائق والآيات

فإنه لا يستطيع أن يحقق التفكر بالمستوى المقبول اللائق؛ لأن العمل هو انعكاس ظاهري للتفكر والتدبر الباطن الداخلي.

وفي هذا الشأن يقول الإمام الغزالي:

«أما ثمرة الفكر فهى العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير. فإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها. فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال؛ لأنه هو الذى ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وهو الذى يحدث حال المشاهدة والتقوى» (الغزالي، الإحياء، جـ٦، ربع التفكر، ص٤٧)

والإنسان في ظل هذا التفكر والتدبر الذي تحول إلى عمل يتخلص من مرض رؤية خوارق الطبيعة، وبدائع الصنع في الكون على من الأمور العادية الطبيعية.

ومع الأسف فإن الإنسان العادي يقف بدهشة وانبهار أمام اللوحات التي أبدعها رسام مقلدًا فيها الطبيعة، ولا يشعر بنفس الشعور عندما يقف أمام نفس اللوحات

وخالقها في الكون. ويتلقى كل هذه الخوارق للطبيعة وبدائع الصنعة كأنها أمور عادية طبيعية.

أما أحباب الحق ﷻ الذين لهم قلوب نقية صافية فإنهم يشعرون بالدهشة والإعجاب والحيرة أمام الصانع الحقيقي وآثاره في الكون بدلاً من الإعجاب بتلك اللوحات التي أبدعها الرسام ليخلد اسمه. وهم يتذوقون تلك الصنعة الإلهية التي في البدائع اللامحددة التي اتبعتها يد القدرة الإلهية في الطبيعة. فهم ينظرون إلى الزهور والأوراق المختلفة الألوان والأشكال في النباتات التي تخرج من نفس الأرض وتسقى بماء واحد. وينظرون إلى نقوش القدرة وجمالها في تلك الزهور والأوراق. وينظرون إلى ثمار الأشجار المختلفة الألوان والروائح والأشكال والطعوم. وينظرون إلى النقوش البديعة في أصبغة الفراشة التي لا يزيد عمرها عن أسبوع أو اثنين فقط. وينظرون إلى الإبداع والعظمة الخارقة للعادة في خلق الإنسان وهم يصغون السمع للبدائع الإلهية التي لا تنتهي مثل رؤية العين، وإدراك العقل، وإلى ما فيها من لطائف خفية تعبر عنها «بلسان الحال».

والكون كله بالنسبة لهؤلاء هو كتاب مهيَّأٌ معد للقراءة. وهؤلاء يتجاوزون العلوم التي على سطره ليصلوا

إلى العلم الذي في صدره. تماماً مثل مولانا جلال الدين الرومي الذي دفن نفسه في الكتب عندما كان مدرساً في المدرسة السلجوقية ولكن عندما أصابته شرارة من فيض أنوار درويش مجذوب اسمه «شمس تبريزي» -كان قلبه مملوءاً بالعشق- فاحترق مولانا. ولم تعد لتلك الكتب التي أفنى عمره فيها أية قيمة لديه. وبدأ يقرأ في أسرار الكون وبدائع الصنعة الإلهية. وبعد فترة استطاع أن يبدع كتاب «المثنوي» الذي كان رسالة نجوى ومناجاة وتضرع توضح الأسرار التي في الإنسان والكون والقرآن.

فَيَا لَسَعادة هؤلاء العباد الخواص الذين عاشوا وَقضوا حياتهم الدنيا بتفكر وتدبر بقلوب رقيقة مملوءة بنور الإيمان وبعقول سليمة تربَّت على هدى الوحي واستطاعوا الوصول إلى معرفة الله ﷻ.



الخاتمة

في عصرنا الحاضر يبحث بعض الأشخاص - الذين تَغرَّب تراثهم وثقافتهم - عن السكينة والطمأنينة في برامج التنمية البشرية ذات الأصول الغربية، أو في دروس اليُوغا ذات الأصول الشرقية. مع أن السكينة الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان تكمن في المراقبة التي تتحقق بالذكر، والتفكر، والتدبر. وتلك الأمور هي مفتاح الحقائق والحكم الإلهية التي أوصى بها الإسلام.

وأي تفكر نضج بالتدبر القلبي سيكون منبعًا للانشراح الروحي والسكينة القلبية، لأن تفكراً كهذا يوصل الفرد إلى الحكمة. أما رأس الحكمة فهي خشية الله تعالى ومخافَتُه. والحاصل أن التفكر يوصلنا إلى مرضاة الله ﷻ ومحبته.

وأي إنسان يفكر بالشكل اللائق في الكون والأحداث ويبحث عن أجوبة لأسئلة مثل: ما هذه الدنيا؟ ولماذا خُلقت؟ وما هي ماهية تلك الآيام الفانية وحقيقتها؟ وأي الطرق هي طريق السعادة؟ ومن أكون؟ وكيف يجب أن أعيش؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين سأذهبُ؟. فمن المؤكد أن هذا النوع من التفكر سيخلصه من شهوات الدنيا الزائلة، ويوصله إلى الطريق الصحيح وإلى السعادة الأبدية.



وقد حاولنا في كتابنا هذا العاجز الذي لحْمَته العجز وسداه النقصان أن نعرض جزءاً بسيطاً من الأسرار والحكم والحقائق التي في الكون والإنسان والقرآن الكريم مستفدين من الثوابت العلمية في عصرنا الحاضر.

ومن يدري ربما تظهر أسرار وحكم أكثر في المستقبل تلقي الضوء أكثر على سرمدية القدرة الإلهية وعظمتها.

فضلاً عن ذلك فإن المسائل التي لمسناها هنا هي فقط من قبيل المثال بما يتناسب مع حجم كتابنا المتواضع. وربما يتمكن القراء الأعزاء من توسيع أفق التفكر - الذي حاولنا توضيحه في ضوء هذه الأمثلة - إلى حد يحيط بالموجودات والأحداث كلها في عوالم قلوبهم نفسها. وهكذا يجمعون كثيرًا من لآلئ الحكمة والأسرار من بحر معرفة الله تعالى.

فيا رب أنعم علينا جميعاً بتفكر واسعٍ المدى. ويسِّر لنا أن نحيي قلوبنا وأفئدتنا وأن نقرأ أسرار القرآن، والإنسان، والكون بنظرة اعتبار وتدبر. واجعلنا أجمعين من عبادك السعداء الذين يعيشون دائمًا في حال المراقبة ويصلون إلى معرفتك على الوجه الذي يليق بجلالك ياربَّ العالمين...آمين



المحتويات



التفكر في الإنسان



التفكر في القرآن

آداب التفكر

النتيجة